

بناء الشخصية ومواجهة التحديات

حسن موسى الصفار

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن
اتجاهات أو أفكار يتبنّاها مركز عين للدراسات والبحوث
المعاصرة وإن كانت تقع في دائرة اهتماماته وأولوياته

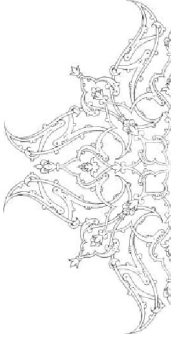


الطبعة الثالثة

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م



من أهداف مركز عين :



مركز "عين" للدراسات الفكرية المعاصرة، يعنى بتفاعلات الواقع الإسلامي، ويحاول أن يؤصل للحلول والمقترحات تجاه مشكلات الإنسان المعاصر.. كما وينطلق من رؤية راسخة بقابلية الحضارة الإسلامية على قيادة الحياة وتقديم نموذج يتناسب مع احتياجات العصر من غير أن ينقطع عن أصوله ومنطلقاته وثوابته..

يسعى المركز ضمن برامج بحثية وهموم ثقافية ودورات لكتابة البحوث وتصديرها، لتعزيز الوعي الاجتماعي بقضايا الثقافة والأفكار ومناقشة مطاريح التخلف والتسيد لقيم غير أصيلة في المجتمع..

ليس من أهداف المركز أو مطاريحه الاعتناء بالتبشير الطائفي، ويؤمن أن ما يحدث اليوم هو طائفية سياسية تسعى لتجيير كل الدين والإنسان في أتون معركة مصالح دنيئة.. ولا تمنع من دراسات تنطلق من التسامح في التعايش والإيمان بمشتركات الإنسان دون إلغاء الآخر مع الاحتفاظ بالرمزية العلمية وشروطها..

كما يؤمن المركز أن الحلول الإسلامية تنطلق من جذورها المناسبة، ولهذا فهي تحاول التأسيس من منطلقات إسلامية خالصة، بعيداً عن كل التحيزات المحيطة..



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. اللهم صل على محمد وآل
محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على
محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم،
إنك حميد مجيد.



مقدمة

منح الله تعالى الإنسان كل مقومات الكمال والتقدم، لتتجلى من خلاله عظمة خالقه، وليؤدي الدور المناط به في الحياة، كخليفة لله، ومسؤول عن عمارة الأرض.

وهبه قوة إدراك وتفكير، يعرف بها أنظمة الكون وقوانين الوجود، ويكتشف كنوز الطبيعة وإمكانات الحركة والفعل.

وذلل له مناكب الأرض، وفتح أمامه آفاق السماء، وأخضع له الأفلاك والأملأك الذين خروا له سجداً، استجابة لأمره تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(١)، وزوده بلياقة جسمية رائعة، تجتمع فيها قدرات الحواس والأعضاء، مع جمال المنظر وبديع الشكل.

وقد عبر القرآن الكريم عن كل هذا التميز الإنساني بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ

(١) سورة الحجر: الآية ٢٩.

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ^(١)، فلو كان هناك مواصفات أرقى، ومقومات أعلى، لما ادّخرها الله تعالى لموجود آخر غير الإنسان، فهو أفضل تعبير، وأحسن مثل عن عظمة الخالق وقدرته.

لكن مشكلة هذا الإنسان تكمن في غفلته عن مقومات كماله، وإهماله لنقاط قوة وجوده، مما يفقده التمتع بميزات موقعيته العالية الرفيعة، وينحدر به إلى قاع الضعف والهوان. ليصبح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^(٢).

وبين الارتقاء إلى موقعية أحسن تقويم، والانحطاط اليقعر أسفل سافلين، هناك مضمار سابق، ومعتك صراع، وميدان سعي وكفاح، تتفاوت فيه درجات الصعود ودركات الهبوط.

إننا نقرأ في سجلات التاريخ، ونرى في الواقع المعاصر، تفاوت الدرجات بين بني البشر، كأفراد ومجتمعات، فهناك العظماء المبدعون، ممن أحروا التقدم في مجالات الكمال المختلفة، معنوية مادية، وهناك البسطاء المتخلفون، الذين يظلون يراو حون مكانهم، دون خطوة تقدم، أو إنجاز يذكر.

وسر التفاوت بين الناس مخبوء في أعماقهم، نابع من دواخلهم، يتمثل في إرادة التفكير وعزيمة الفعل، فواقع الإنسان يصنعه قراره

(١) سورة التين: الآية ٤.

(٢) سورة التين: الآية ٥.

وإرادته يقول تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿١﴾، صحيح أن للظروف الخارجية والعوامل المحيطة بالإنسان، تأثيراً على حاله وواقعه، لكنه تأثير محدود، لا يلغي مسؤولية الإنسان، ولا يجرده من إرادته وقدرته على التحدي والمقاومة.

وأهم ما يحتاجه الإنسان هو توجهه لذاته، واستكشافه لمواهبه، وسعيه لتفعيل طاقاته، وإشهاره لسلاح إرادته في مواجهة العوائق والتحديات. إنه المسؤول عن تخلفه، ويده مفاتيح تقدمه، فرداً ومجتمعاً.

وهذه الصفحات المتواضعة بين يدي القارئ الكريم، تضم مجموعة من المقالات التربوية، الهادفة إلى توجيه الإنسان لذاته، لتنمية قدراتها، ومعالجة ثغراتها، حتى يبني شخصيته الكفوءة الجديرة بالتقدم في آفاق الكمال.

إنها رؤى ومعالجات في بناء الشخصية وتنمية الذات، وفي منهجية التعامل مع مشاكل الحياة وتحدياتها، أرجو أن تكون لي موعظة وذكرى، وأن يجد فيها الآخرون هدى ورشاد. والله خير موفق ومعين.

حسن الصفار

١٢ / ٥ / ١٤٢٤ هـ



الفصل الأول

ففي بناء الشخصية

- التعبير عن الذات وتوكيد الشخصية
- المبادرة واستباق الخيرات
- نحو استثمار أفضل لوقت الفراغ
- بناتنا في طريق العلم
- الاستهلاك وعادات الإسراف



التعبير عن الذات وتوكيد الشخصية

يصنف علماء النفس أنماط الشخصية الإنسانية إلى ثلاثة أصناف:

١. الشخصية الانطوائية.

٢. الشخصية النرجسية.

٣. الشخصية التوكيدية.

أولاً. الشخصية الانطوائية :

والانطوائية صفة تطلق في علم النفس، على وجود الرغبة والميل للانعزال والانطواء عن الآخرين، بحيث يتركز انتباه الفرد إلى ذاته وداخله، ويعزف عن التفاعل مع بيئته الاجتماعية، وهي حالة غير صحية، تحصل بسبب الاستغراق المبالغ فيه ببعض الهموم والمشاكل الذاتية، والانطواء يفاقم هذه الحالة ويضاعفها، مما يهدد بالإصابة بالوساوس - مثلاً - والاضطرابات النفسجسمية. وقد يكون الميل

للعزلة والانطواء ناشئاً من الشعور بضعف الثقة في النجاح والتعاطي مع الآخرين.

إن انفتاح الإنسان على الآخرين وعلاقاته معهم، يساعده كثيراً في تجاوز بعض المشاكل الداخلية التي يعاني منها، بخروجه من دائرة الاستغراق فيها، والتخفيف من ضغوطها. كما تتطور بذلك قدرات الإنسان ومواهبه، ويجد من خلالها السبل والوسائل لمعالجة المشاكل، وتوفير المتطلبات.

والانطوائية لها درجات متفاوتة، أدناها أن يقتصر انفتاح الإنسان على دائرة اجتماعية خاصة، كأقربائه أو أبناء محلته، بينما يتردد ويتهرب عن العلاقة مع غيرهم.

وقد تصاب بعض الجماعات بحالة انطواء تجاه الجماعات الأخرى، فيغلب على أبنائها الميل للعزلة، والابتعاد عن الآخر المختلف دينياً أو عرقياً، فيتوقعون ضمن مناطق خاصة بهم، وتقتصر صداقاتهم وعلاقاتهم مع أفراد مجتمعهم، ويعزفون عن التعامل والتعاطي خارج إطارهم.

ويرى أحدهم نفسه غريباً خارج منطقته وإن كان ضمن الوطن الواحد، فيكون بقاءه في المناطق الأخرى بحدود الحاجة والاضطرار، وقد يفوّت على نفسه فرصاً للتقدم الوظيفي، أو النمو الاقتصادي، إذا كان ذلك في غير منطقته، وقلّ أن يبادر المقيمون منهم في مناطق

أخرى إلى تكوين علاقات وصداقات مع البيئة الاجتماعية فيها، بل يشكلون لهم تجمعهم الخاص، مما يكرس لديهم حالة الانطواء والانغلاق.

وحتى على مستوى الجامعات والمؤسسات العامة، يميل هؤلاء إلى العلاقة مع بعضهم فقط.

بالطبع لا تصاب جماعة بهذه الحالة إلا نتيجة عوامل وأسباب، من أبرزها اضطراب العلاقة بينها وبين جماعات أخرى أكثر قوة، فيدفعها الإحساس بالضعف، والحفاظ على الهوية، إلى اللجوء لحالة الانطواء والانغلاق، ثم تنشأ ثقافة تكرر ذلك الواقع، عبر تشريعات دينية، وأعراف وتقاليد اجتماعية.

إنها حالة غير سوية على مستوى الفرد والجماعة، تنتج خللاً داخلياً، وتعرقل النمو، وتمنع فرص التقدم، فلا بد من معالجة أسبابها، والسعي لتجاوزها.

ثانياً. الشخصية النرجسية:

المبالغة في حب الذات، قد تدفع صاحبها لبعض السلوكيات المجحفة بحقوق الآخرين، كالاستئثار عليهم، وإبراز شخصيته بطريقة مميزة، على حساب شخصياتهم، وتضخيم قدراته ودوره، والرغبة في إظهار تفوقه، حيث يطربه تمجيد ذاته، وينتشي بمدح الآخرين له، ويتوقع من الآخرين أن يتعاملوا معه باعتباره متميزاً،

ويتحسّس تجاه من لا يبدي نحوه اهتماماً خاصاً.

بل قد يزعجه ظهور الآخرين وتقدمهم، ويشير في نفسه الغيرة والحسد، ويحاول التقليل من شأنهم، حتى لا يبدو في مستوى المنافسة والمزاحمة لموقعيته ومكانته.

ويرفض هذا النوع من الأشخاص أي نقد أو ملاحظة، ويعتبر ذلك تجريحاً وانتقاصاً من مقامه.

يطلق علماء النفس على هذه الشخصية مسمى (الترجسية). وعادة ما تكون هذه الشخصية ثقيلة الظل على الآخرين، وتواجه صاحبها كثير من التوترات في علاقاته الاجتماعية، ترتد على نفسيته بالآلام والجراحات.

وكما على مستوى الأفراد، كذلك على مستوى الجماعات، فقد تصاب بعضها بمثل هذه الحالة، حين تسود أجواءها مشاعر التفوق والتعالي على سائر الجماعات في محيطها، لانتماء عرقي أو ديني أو قبلي، وما قد تنطوي عليه وتدفع إليه هذه المشاعر، من مواقف وممارسات سلبية تجاه الآخرين.

إن الذات الترجسية الجماعية تعيش في ظلها الثغرات، ونقاط الضعف، نتيجة الرضا عن الذات، ورفض النقد واعتباره عدواناً من الآخر، كما تفسد أرضية التعايش والانسجام بين الجماعة والجماعات الأخرى، وقد تؤسس لحالة من القطيعة والاحترا ب.

ويعكس أدب الحماسة والفخر في العصر الجاهلي، صوراً عن هذه الذات النرجسية، كقصيدة عمرو بن كلثوم التي تحكي مشاعر قبيلته تغلب، وفيها يقول:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً تخر له الجابرة ساجدينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرأً وطينا

ونجد في مرويّات بعض الطوائف الإسلامية، ما يغذي الروح النرجسية بين أبنائها، حيث توحى لهم بأن مجرد انتمائهم المذهبي كافٍ لأفضليتهم على الآخرين، وضمن الجنة لهم دون غيرهم، وإن قل عملهم الصالح أو سلكوا طريق المعاصي، بينما يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾^(١).

ثالثاً. الشخصية التوكيدية:

يعتبر مفهوم التوكيدية من المفاهيم الحديثة في مجال علم النفس، ويمكن أن نستخلص من أبحاث العلماء المختصين التعريف التالي: توكيد الذات يعني شعور الفرد بالثقة بنفسه، وسعيه للتعبير عن ذاته في

(١) سورة النساء: الآية ١٢٣.

الوسط الذي يعيش فيه، والعمل على حماية مصالحه وحقوقه.

إن الثقة بالنفس هي مفتاح تفجير المواهب والكفاءات، وبدونها تبقى قدرات الإنسان كامنة مشلولة، حيث ينطوي كل إنسان على قدرات هائلة، لكنه لا يلتفت إليها، أو يشك في وجودها، ويتردد في استخدامها، بسبب ضعف الثقة بالنفس.

كما أن نجاح الإنسان في بناء علاقات سليمة متكافئة مع الآخرين، يعتمد على ثقته بنفسه.

والهروب عن التعامل مع الآخرين، أو الخوف من الارتباط بهم، أو الفشل في إدارة العلاقة معهم، أو انسحاق الشخصية أمامهم، كل ذلك من مظاهر وأعراض ضعف الثقة بالنفس.

وحينما يواجه الإنسان مصاعب الحياة ومشاكلها في الميادين المختلفة، فإن أهم سلاح يتكئ عليه في المواجهة، هو الثقة بالنفس، وبمقدار توفرها تكون درجة صموده ومقاومته.

من هنا تصبح الثقة بالنفس أولى ركائز الشخصية التوكيدية.

أما الركيزة الثانية فهي التعبير عن الذات بأن يمتلك شجاعة الإفصاح عن مشاعره السلبية والإيجابية، بالطريقة المناسبة، وعند انخفاض مستوى التوكيدية يتردد الإنسان ويتهيب من إبداء مشاعره، بسبب حالة من الخوف أو الخجل.. إن البعض من الناس يصعب عليه التعبير عن رضاه أو انزعاجه تجاه الآخرين، بينما يعيش احتقاناً

داخلياً بتلك الأحاسيس والمشاعر، والأمر الأهم هو شجاعة إبداء الرأي التي يفقدها ضعف الشخصية، بينما يتحلى بها ذوو الشخصية التوكيدية.

والركيزة الثالثة في التوكيدية، السعي لحماية الحقوق والمصالح، التي قد تتعرض للمصادرة والانتقاص من قبل المعتدين والطامعين، ولا يصونها ويحفظها إلا حرص الإنسان عليها ودفاعه عنها.

التعبير عن المشاعر:

المشاعر والأحاسيس هي انعكاس صور الأحداث والأشخاص على لوحة نفس الإنسان، حيث يواجه ما يسره وما يحزنه، ومن يرتاح إليه ومن يزعجه، وما يرضيه وما يغضبه.

هذه الانطباعات تترجمها المشاعر والأحاسيس، التي تظهر على قسّمات وجه الإنسان، وعبر أحاديثه وكلامه.

وفي الحالة السويّة يفصح الإنسان عن مشاعره تجاه الأشياء والأحداث، مما يجعله أكثر حيوية وتفاعلاً مع الحياة، ويجدد نشاطه النفسي والعاطفي، وينظّم علاقته بما حوله.

وقد يكبت الإنسان مشاعره ويقمعها، مما يحدث له إيذاءً نفسياً، ويضعف تفاعله مع الواقع المحيط به، وبمرور الزمن يصاب بتبدل الأحاسيس وجفاف المشاعر.

ولعل من معاني قسوة القلب الذي تحذر منه النصوص الدينية، هو كسل مستوى الأداء العاطفي، وجمود المشاعر والأحاسيس الإنسانية، فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «إن أبعد الناس من الله القلب القاسي»^(١). إن التفاعل العاطفي هو ميزة إنسانية يختلف بها عن الجمادات التي لا مشاعر لها، فإذا تجمدت مشاعر الإنسان، تساوى مع الجمادات، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾^(٢).

لذلك من المحبذ أن يعبر الإنسان للآخرين عن مشاعره الإيجابية تجاههم، مما ينشط أداءه العاطفي، ويسعد الآخرين، ويقوي علاقته بهم.

جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قبل ولده كتب الله له حسنة، ومن فرّحه فرّحه الله يوم القيامة»^(٣). وفي العلاقة مع الزوجة ورد عنه ﷺ: «قول الرجل لزوجته إني أحبك لا يذهب من قلبها أبداً»^(٤).

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، ج ١، الطبعة الخامسة ١٩٨٥، حديث رقم ١٨٤٠، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص ٤٢٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧٤.

(٣) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج ٢١، حديث رقم ٢٧٦٢٣، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م، (بيروت: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث)، ص ٤٧٥.

(٤) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي، ج ٥، الطبعة الثالثة المصححة ١٩٨٥ م، (بيروت: دار الأضواء)، ص ٥٦٩.

وفي العلاقة مع الآخرين روي عنه ﷺ: «إذا أحب أحدكم صاحبه أو أخاه فليعلمه، فإنه أبقي في الألفة وأثبت في المودة»^(١).

ويأتي في هذا السياق الحث على إبداء الشكر والاحترام للمحسنين: جاء في الحديث عنه ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(٢).

وعند وفاة ابنه إبراهيم عبر رسول الله ﷺ عن مشاعر حزنه أمام المسلمين وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(٣).

فإبداء المشاعر له وظيفة إيجابية في حياة الإنسان، وكتبها وقمعها حالة غير سوّية لها مضاعفات سلبية، وقد تفرض الظروف الخارجية على الإنسان ذلك، لكن البعض من الناس يمنعهم من إبداء أحاسيسهم، انخفاض المستوى التوكيدي في شخصياتهم، وضعف ثقتهم بذواتهم، وهذا ما ينبغي أن يعالج بالثقيف والتوجيه والممارسة العملية.

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، ج ٩، الطبعة الخامسة ١٩٨٥، حديث رقم ٢٤٧٤٧، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص ٢٥.

(٢) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، حديث رقم ٢١٦٣٧، ص ٣١٣.

(٣) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ج ١، ص ٣١٧، حديث رقم ١٣٠٣.

التعبير عن الرأي:

حركة فكر الإنسان، وتأمله فيما حوله، وخلفيته المعلوماتية، تنتج لديه آراء وأفكاراً، فيها ما يكون صائباً مفيداً، وفيها ما يخالف الصواب، ويفتقد النضج.

وتطور ساحة المعرفة الإنسانية إنما يكون بتداول الآراء وتلاقحها، ولو انطوى كل إنسان على رأيه وفكرته، لما تقدمت حياة البشر خطوة واحدة في أي ميدان من الميادين.

لذلك يمتن الله تعالى على الإنسان بمنحه القدرة على البيان والتعبير يقول تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(١).

إن التعبير عن الرأي ينشط حركة الفكر عند الإنسان، ويشجعه على المزيد من العطاء، يقول الإمام علي عليه السلام: «العلم يزكو على الإنفاق»^(٢). كما يساعد في بلورة الرأي وإنضاجه، وتبيين موقعه من الصحة والخطأ. ويشكل إسهاماً وإثراءً لساحة المعرفة. وتقويماً للأوضاع الاجتماعية.

وقد أصبح التعبير عن الرأي من أهم مقاييس تقدم المجتمعات، حيث تعاني المجتمعات المتخلفة قيوداً على حرية التعبير عن الرأي، ويهمنا في هذا البحث ما يرتبط بالجانب الذاتي، حيث يمارس

(١) سورة الرحمن: الآية ٣-٤.

(٢) الشريف الرضي: محمد بن الحسين، نهج البلاغة، حكمة رقم ١٤٧.

الإنسان على نفسه قمعاً ذاتياً، ويصادر حقه في التعبير عن رأيه، حذراً من مخاوف وهمية، وانتقاصاً من قدراته، وتشكيكاً في قيمة آرائه.

ويحدث مثلاً أن تُداول الآراء في شأن من الشؤون، ويبدو للإنسان فيه رأي، لكنه يتردد في طرحه، حتى إذا طرحه آخرون، واستحسنه الجميع، لام نفسه على ترده وتوقفه عن إبداء رأيه.

التربية التوكيدية:

التنشئة الأسرية لها الدور الأساس في صياغة شخصية الإنسان، وتحديد معالمها وتوجهاتها، لذلك يلحظ علماء النفس تأثير دور التربية العائلية على مستوى توكيد الذات، ارتفاعاً وانخفاضاً.

فالتنشئة السليمة يتخرج منها أقوياء الشخصية، من تتوفر لهم درجة عالية من التوكيدية، بينما التربية الخطأ تنتج عناصر مهزوزة الشخصية، تفتقد الثقة بذاتها، وقدرة التوكيد.

إن احترام الطفل وتشجيعه على التعبير عن مشاعره وآرائه، وتدريبه على مواجهة المواقف، وعدم الهروب منها، والتواري خلف مساعدة والديه دائماً، هو الذي ينمي توكيد الذات وقوة الشخصية عنده.

أما تحقير الطفل وعدم الاعتناء بمشاعره وآرائه، وتعويدته الاتكالية على والديه في مواجهة المشاكل، فذلك ما يضعف شخصيته، ويخفض درجة التوكيدية لديه.

لذلك تنصح التعاليم الدينية، وأبحاث علماء التربية، بإتاحة الفرصة للطفل لكي يعبر عن ذاته من خلال اللعب والمرح، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان عنده صبيٌ فليتصاب له»^(١).

وكذلك تشجيعه على التعبير عن رأيه في الأمور الخاصة بالأسرة، كوجبات الغذاء، وأثاث المنزل، ورحلات السفر. وإثارة القضايا الاجتماعية والسياسة أمامه، وطلب رأيه فيها.

ويجري الآن في بعض دول العالم الديمقراطية استضافة مجاميع من طلاب المدارس الصغار، إلى مبنى البرلمان، في بعض الأيام، وعقد جلسة برلمانية خاصة بهم، لمناقشة قضايا محددة، وتدريبهم على التصويت وإبداء الرأي.

وفيما يرتبط بمواجهة المواقف ينصح علماء التربية، بتدريب الطفل على تحمّل المسؤولية عن أقواله وأفعاله، فإذا طلب من أمه - مثلاً - أن تخبر صديقاً يريد محادثته تليفونياً أنه نائم، لأنه لا يريد الذهاب معه لبرنامج ما، فعليها أن ترفض ذلك، وتوضح له بأن عليه مواجهة صديقه بعدم رغبته والاعتذار إليه، بدلاً من التهرب منه والاحتماء بها.

وحين تعود الابنة باكية من المدرسة لأن أحد الشباب ضايقها في الطريق، وتقرر عدم الذهاب للمدرسة، أو الذهاب برفقة أخيها، فمن

(١) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، حديث رقم ٢٧٦٥٩، ج ٢١، ص ٤٨٦.

الأفضل رفع معنوياتها، وإشعارها بأنها قادرة بنفسها على ردع هذا الشاب، بتهديده بإبلاغ الشرطة، وتحريض المارة لإيقافه عند حدّه وفضحه أمام الناس.

وكذلك حين يحصل نزاع بين الابن وبعض زملائه في المدرسة، فلا ينبغي للأب أن يسارع إلى التدخل للدفاع عن الابن والانتصار له، بل عليه أن يرشده إلى أفضل الطرق لمواجهة المشكلة بنفسه.

وهكذا فالمنهج الصحيح تدريب الولد على تحمل المسؤولية، والدفاع عن حقوقه ومصالحه، إلا في المواقف التي تستدعي التدخل.

نحو ثقافة توكيدية :

وبعد العائلة يأتي دور المحيط الاجتماعي والثقافة السائدة فيه، فقد تكون قائمة على أساس احترام الفرد، والاعتراف بحقه في التعبير عن ذاته، وتشجيعه على إبراز كفاءته ورأيه، وهنا يكون المحيط الاجتماعي مساعداً على تنمية الذات، ورفع درجة توكيدها.

على العكس من ذلك إذا سادت أجواء الإرهاب والقمع الفكري، والتقليل من شأن الفرد إلى حد الذوبان والانسحاق، ليصبح أمّعة طبقاً لشعار (حشر مع الناس عيد) وكما يقول تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾^(١).

(١) سورة المدثر: الآية ٤٥.

ففي مثل هذا المحيط ينخفض مستوى التوكيدية عند الفرد، مما يجعله سهل الانقياد مع أي تيار جارف، ولقمة سائغة لكل قوي معتدي.

إن تعاليم الإسلام تربي الإنسان على أساس المسؤولية، فهو محاسب أمام الله تعالى عن أفعاله وأقواله، لأنه شخصية مستقلة، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(١).

ولا يُقبل منه أبداً التنازل عن عقله وإرادته انبهاراً بالآخرين وخضوعاً لهم، حيث يرفض الله تعالى الاعتذار بذلك يوم القيامة ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾^(٢).

وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما تعني واجب كل مسلم في الاعتراض على الخطأ، وعدم مماثلة الانحراف والفساد، من أي جهة كان، (فالساکت عن الحق شیطان أخرس).

لكن التوكيدية والتعبير عن الذات والرأي، لا تعني التهور والصدامية، ولا الانطلاق مع الأهواء والرغبات، دون ضوابط والتزامات، إن ذلك يقود إلى الفوضى والفساد.

حيث وهب الله تعالى الإنسان عقلاً يشكل مرجعية لسلوكه وممارساته، والتوكيدية منهج وسلوك في ظل هدي العقل ونوره.

(١) سورة الطور: الآية ٢١.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦٧.

من هنا يحتاج الإنسان إلى الحكمة واللباقة ليعبر عن ذاته، ويحمي مصالحه وحقوقه، بالأسلوب الصحيح المناسب، وإلا فقد يجلب لنفسه الشقاء، ويسيء إلى علاقاته مع الآخرين.

والقصة التالية من تراثنا العربي نموذج لموقف توكيدي رائع، تمثل الجرأة في التعبير عن الرأي، واللباقة في تجنب الخطر:

يحكى أن الحجاج خرج يوماً متنزهاً فلما فرغ من نزته صرف عنه أصحابه، وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخ من بني عجل فقال له: من أين أيُّها الشيخ؟ قال: من هذه القرية. قال كيف ترون عمّالكم؟ قال: شرّ عمال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم. قال: فكيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما وليّ العراق شرُّ منه، قبّحه الله، وقبح من استعمله. قال: أتعرف من أنا؟ قال: لا. قال: أنا الحجاج. قال: جعلت فداك، أو تعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا فلان بن فلان من بني عجل، أصرع في كل يوم مرتين - أي أصاب بالجنون - قال: فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة^(١).

(١) الأبشيهي: محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، ج ١، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م، (بيروت: المكتبة العصرية)، ص ١٠٨.



المبادرة واستباق الخيرات

تمتلى الحياة بفرص الخير ومجالات التقدم، ويمتلك كل إنسان من القدرات والاستعدادات ما يؤهله لاقتناص تلك الفرص، وارتداد تلك المجالات، لكن الناس يتفاوتون في الانتباه لها والمبادرة نحوها. فهناك من يدرب نفسه على التركيز في النظر، وإمعان الفكر، ودقة الملاحظة، في أي ميدان من الميادين التي تحيط به، في العلم أو العمل، أو السياسة أو التجارة، أو ما أشبه، فيلمح الفرصة من بعيد، ويلتقط الإشارات، ويستقرأ الأوضاع والأشخاص.

وهناك البسيط المسترسل في حياته وأموره، الذي لا يرهق نفسه بتفكير أو تحليل، ولا يتجاوز في نظراته السطح أو الظاهر، فتمر عليه الفرص، وتتاح له المجالات، وهو غافل ساه، كأنه لا يبصرها ولا يدركها.

كما أن من يلتفتون إلى الفرص ويدركونها يختلفون ويتفاوتون في

مستوى الفاعلية والإقدام، لأخذ زمام المبادرة، والتوثب نحو أعمال الخير.

ذلك أن الكثيرين ترد على أذهانهم أفكار جيدة، وتتوافر لهم ظروف مناسبة للإنجاز والتقدم، لكن عوائق نفسية، تقعد بهم عن الاندفاع والمبادرة، بينما يفوز بها الشجعان المبادرون.

فالمبادرة هي عنوان النجاح، وهي طريق التقدم، وسلاح اغتنام الفرص، واستثمار الظروف، والفرد المبادر يحقق الإنجازات، ويحظى بالمكاسب. وكذلك المجتمع الذي يتحلى بهذه الصفة، فإنه يتمتع بالحيوية، ويطور واقعه إلى الأفضل بشكل دائم مستمر.

في القرآن الكريم:

ولأهمية هذه الصفة في حياة الفرد والمجتمع، تحدث عنها القرآن الكريم في آيات عديدة، وبأكثر من تعبير. فقد ورد الحديث عن المبادرة في بعض الآيات بلفظ المسارعة.

يقول تعالى: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١).

ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾^(٢).

ويقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴿١﴾.

والمسارعة في اللغة مصدر قولنا: سارع فلان إلى كذا، مأخوذ من مادة (س ر ع) التي تدل على خلاف البطء وسارع بمعنى أسرع يقال ذلك للواحد وللجميع سارعوا. والمسارعة إلى الشيء المبادرة إليه ^(٢).

ونلاحظ في الآيات الكريمة توجيه الخطاب إلى الجمع وليس إلى الفرد فقط، لأن المطلوب أن تكون هذه الصفة سمة للمجتمع كله في مسيرته ومواقفه، كما أن بعض الآيات استخدمت تعبير المسارعة في الخيرات، بدل المسارعة إلى الخيرات، لتعطي إيحاءً بعمق حالة المبادرة داخل المجتمع، فالجميع في إطار الخير، لكن هناك من يضاعف سيره ونشاطه، لأن المسارعة إلى الشيء تكون من خارجه، بينما المسارعة في الشيء تكون من داخله.

يقول ابن عاشور: في للظرفية المجازية، وهي تخيلية تؤذن بتشبيه الخيرات بطريق يسير فيه السائرون، ولهؤلاء مزية السرعة في قطعه ^(٣).

وتحدثت آيات أخرى عن السبق والمسابقة واستباق الخيرات، يقول تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ ^(٤) ويقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

(٢) ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، ج ٣، ص ١٣٤.

(٣) ابن عاشور: محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، ج ٤، ص ٥٨.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

مَغْفِرَةً مِّن رَّبِّكُمْ ﴿١﴾ ويقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢).

والسبق: القُدْمة في الجري وفي كل شيء. وتقول العرب للذي يسبق من الخيل: سابق وسبق. وأسبَقَ القوم إلى الأمر وتسابقوا: أي بادروا ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي بادروا إليها. وقوله عز وجل: ﴿وَاسْتَبِقَا الْبَابَ﴾ معناه ابتدرا الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه (٣).

هذه الألفاظ الثلاثة، المسارعة والمسابقة والمبادرة، متقاربة المعنى إلى حد كبير، ومع أن بينها فروقاً في الاستعمال في كثير من السياقات، إلا أن بينها ما يسميه بعض اللغويين بالترادف الجزئي، ويراد به أن يستعمل اللفظان أو الألفاظ استعمالاً واحداً في بعض السياقات دون بعضها الآخر. وهذه الألفاظ الثلاثة من هذا القبيل، فهي عند الاقتران بالخيرات أو العمل الصالح يكون لها المعنى نفسه، وقد كثر لفظ «المبادرة» في الحديث الشريف، ولفظ المسارعة في القرآن الكريم، أما المسابقة فقد وردت فيهما على سواء (٤).

(١) سورة الحديد: الآية ٢١.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان ١٠-١١.

(٣) ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، ج ٣، ص ٩٠.

(٤) مجموعة من المختصين: بإشراف: صالح حميد - عبد الرحمن بن ملوح، موسوعة نضرة النعيم، ج ٨، ص ٣٣٨٨.

الأوائل:

المبادرة تجعل الإنسان رائداً يقتحم مجالات لم يسبقه إليها غيره، وتدفعه إلى تحقيق إنجازات لم يتوفق لها أحد قبله، فيكون قد شق طريقاً جديداً، وفتح أفقاً آخر أمام أبناء مجتمعه وجنسه، والذين سيسلكون نفس الطريق بعد أن مهد لهم، واكتشفه قبلهم، فيبقى هو الأول والمتقدم والسابق. بالطبع فإن الارتياح والافتحام لميدان جديد، ولطريق لم يسلك، لا يقوم به إلا كفؤ شجاع. لذلك يستحق الأوائل السابقون في ساحات الخير كل تقدير وإكبار. فقد أشاد القرآن الكريم بالأوائل السابقين إلى الدين والحق يقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾^(١).

وفي أكثر من آية كريمة يشجع القرآن الإنسان، أن يتطلع إلى أن يكون الأول في طريق الخير والصلاح، وذلك لا يتم إلا بامتلاك روح المبادرة يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾^(٢) ويقول تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣) ويقول تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤). والأول هو ابتداء الشيء^(٥).

(١) سورة التوبة: الآية ١٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤.

(٣) سورة الزمر: الآية ١٢.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٥) الطريحي: فخر الدين، مجمع البحرين، ج ٥، ص ٣١١.

ونجد في حضارتنا العربية الإسلامية اهتماماً وعناية بمفهوم الأوليّة، حيث خصصوا بداية كل شيء وأوله باسم وعنوان خاص، لتمييزه وابعازيه، فأول النهار صبح، وأول الليل غسق، وأول المطر وسمي، وأول العصير سُلاف، وأول مولود لأبويه بكر، وأول كل شيء باكورة، وأول الجيش طليعة.. وهكذا.

بل شهد نهاية العصر العباسي الأول ولادة فن جديد من فنون التاريخ على يد أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائني المتوفى (٢٢٥هـ / ٨٤١م) أسموه (علم الأوائل). وعرف القلقشندي هذا العلم في كتابه (صبح الأعشى) بقوله: «هي معرفة مبادئ الأمور المهمة». أما حاجي خليفة فقد قال عن علم الأوائل في كتابه (كشف الظنون) ما يلي: «هو علم يتعرف منه أوائل الوقائع والحوادث بحسب المواطن والنسب. وموضوعه وغايته ظاهرة. وهذا العلم من فروع التواريخ والمحاضرات».

وهكذا كان الاهتمام بالتعرف إلى الرواد الأوائل وتعريفهم، وعلى بدايات ظهور الأشياء والحوادث على أيديهم. فظهرت مؤلفات كثيرة حول هذا الموضوع، منها ما طبع ومنها ما هو مخطوط. منها كتاب (الأوائل) لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري المتوفى سنة (٣٩٥هـ / ١٠٠٥م) والذي طبع أكثر من مرة. وكتاب (الوسائل إلى معرفة الأوائل) لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ / ١٥٠٦م) وهو مطبوع أيضاً، وتنوف الكتب المخطوطة

حول الأوائل على ثلاثة عشر كتاباً^(١).

شخصية المبادر:

هناك عناصر وعوامل تخلق روح المبادرة في شخصية الإنسان ومن أهمها ما يلي:

(١) الوعي والمعرفة:

بمقدار معرفة الإنسان ومتابعته لأي مجال من المجالات، يستكشف الفرص فيه، وتتضح له الإمكانيات ضمنه، وذلك أول شرط من شروط المبادرة، فالجاهل بالأوضاع الاقتصادية، ومن لا يتابع حركتها وتطوراتها، لا تخطر بباله فرص الاستثمار، ولا يدرك مواقع الاستفادة والربح، وحتى لو امتلك المال والثروة لكنه لا يلتفت إلى أفضل سبل تنميتها وتفعيلها، وهكذا الحال في المجال السياسي أو الاجتماعي.

كما أن الوعي العام بطبيعة الحياة، ومجريات الأمور، وطريقة التعامل مع القضايا والأحداث، هو الذي يجعل الإنسان مهياً للتعاطي مع الظروف المختلفة، وقادراً على فهم معطياتها.

(١) السيد: الدكتور فؤاد صالح، معجم الأوائل في تاريخ العرب والمسلمين، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، (بيروت: دار المناهل)، ص ١٠.

٢) الثقة بالذات:

بعض الناس ترد على أذهانهم أفكار جيدة، لكنهم يهملونها لأنهم يشكون في قدرتهم على إنتاج وإدراك الأفكار الصحيحة، ويتساءلون: إذا كانت تلك الفكرة سليمة لماذا لم يدركها فلان وفلان؟ ولماذا لم يقل بها فلان وفلان؟

وفي مستوى آخر من ضعف الثقة بالنفس، يشكك البعض في إمكانياتهم وأهليتهم الذاتية، لتحقيق هذا الإنجاز، أو القيام بتلك المهمة.

بينما ينطلق المبادر من ثقة عميقة بذاته، وأنه لا يقصر عن غيره في القدرات والمؤهلات، ولا يقعد به شيء عن الريادة والإبداع.

فإذا ما اقتنع بفكرة ووجدها صحيحة سليمة، لم ينتظر اقتناع غيره لكي يأخذ هو بتلك الفكرة، وإذا سنحت أمامه فرصة لم يتردد في استثمارها، ولا يرى أن غيره أولى بها أو أقدر عليها.

٣) الاستعداد للتضحية والعطاء:

اقتحام الإنسان لما ليس مألوفاً، وارتياحه لميادين جديدة، وساحات غير مطروقة، يعني خوض مغامرة محفوفة بمختلف الاحتمالات، وهي تكلف عناءً وجهداً، كما تعرّض صاحبها للنقد والاعتراض، وهذا ما يقعد بالكثيرين عن المبادرات، خوفاً من الفشل، أو تهيّباً من المخالفة، لكن المبادر الشجاع يتوكل على الله، ويستعد للتضحية

والعطاء، في سبيل ما اتضح له أنه حق وصواب.

(٤) الفاعلية والنشاط:

فالمبادرة تعني الحركة والإقدام، ومن أصيب بداء الكسل والخمول والتواني، لا يكون مبادراً أبداً.

ورد عن الإمام علي (عليه السلام): «التواني إضاعة».

وعن الإمام الصادق (عليه السلام): «عدو العمل الكسل».

اغتنام الفرص:

إذا ما أتحت للإنسان فرصة تقدم، فعليه أن يبادر لاغتنامها، لأن بقاءها واستمرارها غير مضمون، وغالباً ما فإن «الفرصة تمر مر السحاب» كما يقول الإمام علي (عليه السلام)، وعودة تلك الفرص أو تكرارها ليس محرزاً ولا سريعاً، فهي «سريعة الفوت بطيئة العود» كما في كلمة أخرى عنه.

وهذا يعني الاستعداد والتهيؤ لاقتناص الفرص، نفسياً وعملياً. يقول الأستاذ المدرسي: كما الطيور التي تقفز في السماء، تطير بخفة وسرعة، فإذا أردنا اصطياها فلا بد أن نهيب السلاح مسبقاً، ونفتح عيوننا جيداً حتى إذا مرّت رميناها فوراً، وإلا فلن نحصد إلا الحشرات.. كذلك الفرصة، تقفز في الزمن مثل الشهاب، فمن أرادها فلا بد أن يتهيأ لها سلفاً، فيرميها بنبال مبادرته، وإلا فإن «إضاعة

الفرصة غصة» ونظراً إلى أن «الفرصة خلصة» فإن «من آخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها» فالأيام ليست ثابتة، والزمن ليس جامداً، ولذلك فإن الفرص تظهر وتختفي على دقائق الساعات، من هنا كانت المبادرة من صفات العظماء^(١).

من ناحية أخرى، فإن الإنسان إذا ما سوّف وتماهل ولم يبادر، فإنه بالإضافة إلى احتمال فوت الفرصة، قد يفقد هو القدرة والإمكانية، فاستمرار حياته ليس بيده، كما لا يضمن صحته، والحفاظ على مستوى نشاطه، ودوام وسائل وآليات الحركة عنده، ويعبر عن هذه الاحتمالات قول الإمام علي عليه السلام: «وبادروا بالأعمال عُمرًا ناكسا، أو مرضاً حابسًا، أو موتًا خالسًا»^(٢). وفي كلمة أخرى يقول عليه السلام: «بادروا بعمل الخير قبل أن تشغلوا عنه بغيره»^(٣).

وقد تبقى الفرصة موجودة، وقدرات الإنسان وإمكانياته محفوظة، لكنه إذا لم يبادر مع مرور الزمن قد يفقد حماسه واندفاعه وهذا ما يشير إليه الإمام محمد الباقر عليه السلام بقوله: «من همّ بشيء من الخير فليعجله فإن كل شيء فيه تأخير فإن للشيطان فيه نظرة»^(٤).

وفي حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إذا هم أحدكم بخير

(١) المدرسي: السيد هادي، أخلاقيات أمير المؤمنين، الطبعة الأولى ١٩٩١م، (بيروت مؤسسة الأعلمي)، ص ١١٩.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٣٠.

(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢١٥.

(٤) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي، ج ٢، ص ١٤٣.

أو صلة فإن عن يمينه وشماله شيطانين، فليبادر لا يكفاه عن ذلك»^(١).
ويجمع كل ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ: «من فتح له باب خير
فلينتهزه فإنه لا يدري متى يغلق عنه»^(٢).

مجتمع المبادرات:

كما يتفاوت الأفراد في مستوى استجابتهم لفرص التقدم والخير،
بين مبادر وخامل، كذلك تتفاوت المجتمعات، بين مجتمع تكثر فيه
المبادرات، للاستفادة من أي فرصة، ولمعالجة أي مشكلة أو خلل،
وذلك هو المجتمع الحي الناهض المتحضر. وبين مجتمع يسود
أجواءه الخمول والتواكل، فلا يفعل الإمكانات المتاحة له، ولا
يستثمر الفرص من أجل حل مشاكله، أو تطوير واقعه، وإنما يكتفي
أفراده باجتراح الأمل والأسى، أو يترامون المسؤولية، وتنتظر كل جهة
مبادرة الجهة الأخرى.

إن مجتمعاتنا تواجه تحديات خطيرة لقيمها وأخلاقها،
ولاستقرارها ومصالحها، وتمتلك من الإمكانات والقدرات
والكفاءات ما يساعدها على مواجهة هذه التحديات والاستجابة لها،
لكن المشكلة تكمن في ضعف الحركة والفاعلية، وغياب المبادرات.
يتحدث الناس في مجالسهم عن الكثير من النواقص والمشاكل،

(١) المصدر السابق.

(٢) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٦٥.

ولا يخلو مجتمع منها، ولكن إلى متى نكتفي بالحديث عن المشكلة؟ ومن يا ترى يتحمل مسؤولية المبادرة إلى الحل؟ والسعي نحو العلاج؟

يتحدث البعض عن أن المفروض كذا ويجب أن يحصل كذا، ولا بد أن يتحقق كذا، فيوزعون الواجبات والمفروضات على الآخرين، دون أن يحددوا هم ما هو دورهم وواجبهم وماذا عليهم أن يفعلوا؟ إننا لسنا بحاجة إلى فلاسفة أو متفلسفين، ولا إلى منظرين ومحللين، بمقدار ما نحن بحاجة إلى من يعلق أجراس المبادرات العملية، التي تعالج قضايا المجتمع ومشاكله.

فحينما يجري الحديث عن حالة الضياع والفراغ التي يعيشها الكثير من الشباب، أو ظاهرة انتشار بعض المفاسد والانحرافات، أو وجود حالات من العوز والفقر، أو ركود في حركة الثقافة والمعرفة.. أو أي قضية تثير القلق على مستقبل المجتمع، فإن المطلوب هو تجاوز حالة التوصيف للمشكلة إلى وضع الحلول والمعالجات العملية التي نتحمل مسؤوليتها.

إن الله سبحانه وتعالى يحذر عباده المؤمنين من أن يصبح الكلام عندهم بديلاً عن العمل، ومن أن يكتفوا بالقول عن الفعل، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ

أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ»^(١).

ويؤبّخ الإمام علي عليه السلام مجاميع ممن حوله من الذين يتحدثون في المجالس بصوت عال، ويزيدون على بعضهم في الحماسة والاندفاع، لكنهم يتراجعون ويجبنون ساعة الجد والمواجهة والعمل، يقول عليه السلام: «كلامكم يُوْهي الصُّمَّ الصَّلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء! تقولون في المجالس: كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتُم: حيدي حَيَاد!»^(٢).

وما أشد انطباق هذا الكلام على الكثيرين من الناس الذين يتحدثون عن بعض المشاكل بحماس واندفاع في المجالس، فإذا ما طلبت منهم عملاً أو دوراً تفننوا في تقديم الأعذار والمبررات!!

ولا بد أن نشيد هنا بالمبادرات الطيبة التي يقوم بها أفراد مخلصون من أبناء المجتمع، كالقائمين على نشاط الجمعيات الخيرية، ولجان كافل اليتيم، وصناديق الزواج الخيري، ومهرجانات الزواج الجماعي، وبرامج التوعية والتثقيف الدينية.. إنهم يسدون بذلك ثغرات في واقع المجتمع، فجزاهم الله خير الجزاء، لكن قضايا ومشاكل أخرى تنتظر مبادرين آخرين..

(١) سورة الصف: الآيتان ٢-٣.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة ٢٩.



نحو استثمار أفضل لوقت الفراغ

تتفق كل أنظمة التعليم في جميع دول العالم، على منح طلابها إجازة سنوية خلال فترة الصيف، تقارب ثلاثة أشهر يطلق عليها «عطلة الصيف»، وإقرار نظام العطلة الصيفية جاء محصلة ونتيجة لتطور تجارب المجتمع البشري، في مجال علم التربية والاجتماع.

فالدراسة الأكاديمية المنتظمة، تستلزم بذل جهد ذهني ونفسي من الطالب، وتقيّد حريته وحركته ببرنامجه اليومي الرتيب، مما يجعله في حاجة إلى فترة من الراحة، بالتوقف عن التزاماته الدراسية، وشعوره بالحرية والانطلاق.

محطة التوقف هذه أثناء العطلة الصيفية تؤدي عدة وظائف لصالح العملية التعليمية. فهي:

أولاً: تعطي الطالب فرصة لتجديد نشاطه الذهني والنفسي، حتى لا يستنزفه العناء، ولا يسيطر عليه الإرهاق والملل،

فيستأنف بعدها عامه الدراسي الجديد برغبة وشوق.

ثانياً: تشكل العطلة الصيفية فاصلة بين المراحل والبرامج التعليمية، تنبه الطالب إلى حركة مسيرته الدراسية، وتجاوزته لأشواطها، ومستوى خطواته في طريقها، وتهيؤه للاستعداد لكل مرحلة جديدة.

ثالثاً: تمنحه المجال لاستكمال بعض نواقصه، ومعالجة ثغرات تحصيله، ليواكب مسيرة المنهج الدراسي، ولا يتخلف عن مستوى زملائه وأقرانه.

رابعاً: تتيح الفرصة لتنمية شخصيته الإنسانية، في أبعادها المختلفة، فهو إنسان ذو مشاعر وأحاسيس، وله مواهب وقدرات، فلا بد له من أفق مفتوح أمامه، لإشباع مختلف حاجاته، وممارسة رغباته المتعددة.

لكل هذه الأغراض وأمثالها اتفقت أنظمة التعليم على إقرار العطلة الصيفية، ومن نفس المنطلق، اعتمدت أنظمة العمل في جميع الدول، حق الإجازة السنوية لكل عامل.

صحيح أن العمل ذهنياً كان كالدراسة، أو عضلياً كسائر مجالات الإنتاج، هو القيمة الأساس في الحياة، وهو يعني الفاعلية والنشاط المباشر، لتوفير المتطلبات، وتحقيق الطموحات، لكن وقت العطلة والفرغ، هو الآخر لا يخرج عن هذا الإطار، حيث يقصد منه تحديد

رغبة العمل، وتنمية دوافعه، وتوفير مستوى من الارتياح والرضا النفسي.

وقت الفراغ:

وهو الوقت الذي يتحرر فيه الإنسان من التزامات العمل وواجباته، أو التزامات الدراسة ووظائفها بالنسبة للطلاب، وهناك عدد كبير من التعريفات والتصنيفات، وأساليب القياس لوقت الفراغ، تناولتها الدراسات المختصة.

ويمثل موضوع «وقت الفراغ» ميداناً لبحوث مكثفة من قبل علماء الاجتماع، ورغم حداثة الاهتمام بهذا الموضوع علمياً، إلا أنه سرعان ما جذب اهتمام العلماء، واستقطب جهودهم، فأصبح منافساً لكثير من فروع علم الاجتماع، مع أسبقيتها عليه.

وذلك لما لهذا الموضوع من آثار تمتد لتشمل مختلف جوانب حياة الإنسان، التربوية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية. مما جعل الاهتمام بوقت الفراغ ليس مسألة جانبية أو هامشية، بل جزءاً أساسياً من الاهتمام بشخصية الإنسان، وبالنظم الاجتماعية القائمة في الحياة المعاصرة.

وقد تبلورت ظاهرة وقت الفراغ لدى الإنسان المعاصر، في أعقاب الثورة الصناعية في مجتمعاتها، بعد أن كان العامل في عصور الإقطاع مسخراً، لا يتمتع بشيء من حقوقه الإنسانية، فضلاً عن حق الإجازة

والعطلة السنوية. وفي معظم المجتمعات البدائية والزراعية، يضطر الإنسان للاستمرار في الكدح والعمل طوال السنة، لتوفير احتياجات حياته، التي تكاد تخلو من الفراغ بالشكل السائد اليوم.

وكشفت دراسات علماء الانثروبولوجيا، لأساليب الحياة اليومية، للمجتمعات البسيطة والتقليدية، أنه لم يكن يوجد في هذه المجتمعات خط فاصل تماماً، بين العمل والفراغ، ذلك أن العمل يستنفذ طاقاتهم، وتختلط أنشطته بأنشطة الترويح والتسلية، حيث كانوا يقومون ببعض العادات والتقاليد الترويحية أثناء العمل، كالرقص أو الغناء أو المزاح أو العمل التعاوني، وبعض هذه العادات والتقاليد كان ذا طابع ديني^(١).

لكن باحثين من علماء الاجتماع، يذهبون إلى عراقة ظاهرة وقت الفراغ، في كل الحضارات، عبر تاريخ البشر، لكنها كأى ظاهرة إنسانية أخرى تعرضت للتغير والتطور، حتى أصبحت الآن أكثر تقنياً وانتظاماً، بفعل تطور الحياة، وتجارب الزمن.

ونجد في كتابات أرسطو وأفلاطون، وسائر فلاسفة اليونان، مؤشراً على وجود ظاهرة وقت الفراغ في تلك المجتمعات، حيث لم تخل تلك الكتابات من تناول هذه الظاهرة، والحديث عنها بدقة وعمق، باعتبارها فرصة للتربية، وتنمية النفس أو الروح.

(١) محمد: الدكتور محمد علي، وقت الفراغ في المجتمع الحديث، ١٩٨٥م، (بيروت: دار النهضة العربية)، ص ٤٨.

على أن بعض علماء الاجتماع، يرون أن ظاهرة وقت الفراغ آنذاك، كانت محصورة في إطار الطبقة الممتازة، صاحبة المكانة الرفيعة في المجتمع الإغريقي، ولم تكن حالة عامة لدى سائر الطبقات.

أما في العصر الحديث فيتمتع كل عامل أو طالب بوجود وقت فراغ، نظراً للأنظمة السائدة في العالم، القائمة على تحديد ساعات الدراسة والعمل، وإقرار نظام الإجازات والعطل، ونظراً لتقدم مستوى المعيشة والحياة، مما جعل وقت الفراغ جزءاً من نظام حياة الناس غالباً.

الاهتمام بوقت الفراغ:

في وقت مبكر اهتم فلاسفة اليونان بوقت الفراغ، وأكدوا على ضرورة توظيفه روحياً، حيث ركز أرسطو على أهمية استثمار الفراغ في الموسيقى والتأمل، انطلاقاً من رؤيته لدور الأنشطة الموسيقية في تنمية العقل وملكة التفكير، ولمحورية التأمل في بناء شخصية الإنسان وتحقيق إنسانيته.

أما في العصر الحديث فإن الاهتمام بوقت الفراغ أحرز تقدماً كبيراً، وشغل مساحة واسعة، على الصعيد المعرفي والثقافي. فمنذ العشرينيات والثلاثينيات للقرن العشرين، ظهرت كتابات ودراسات كثيرة، في أوروبا وأمريكا، عن وقت الفراغ.

وفي عام ١٩٢٤م نظم مكتب العمل الدولي أول مؤتمر عالمي عن

وقت فراغ العامل، شارك فيه أكثر من ٣٠٠ عضو يمثلون نحو ثمانية عشر دولة.

وفي أوروبا حقق علم اجتماع الفراغ تقدماً كبيراً، إذ عمل «جورج فريدمان» بوجه خاص، على تنمية الاهتمام بدراسة دور الفراغ في إعادة وضع الإنسان، وتكييفه مع الحضارة التي تسيطر عليها التكنولوجيا.

وفي إنجلترا كان للدراسة التي أجراها كل من «روان تري» و«لافيرز» بعنوان «حياة الإنجليز والفراغ» أثرها في توجيه الاهتمام نحو تحرير عدد من المقالات السوسولوجية، والبحوث المتخصصة. كما بدأ «جو فردي مازدييه» في هولندا بحوثه عام ١٩٥٣م لعل أهمها أطلق عليه «نحو حضارة الفراغ» وكذلك دراسته بعنوان «الفراغ الحضري»^(١).

رؤية دينية :

يمكننا أن نستخلص من النصوص والتعاليم الدينية، رؤية عميقة شاملة للدين، حول موضوع وقت الفراغ، وتعالج هذه الرؤية قضية الفراغ من ثلاث زوايا:

الأولى: تنمية حس المسؤولية تجاه الزمن، والحرص على الوقت، باعتبار محدودية عمر الإنسان، وأهمية طموحاته وتطلعاته، وعظيم

(١) المصدر السابق: ص ٤٢-٤٤.

الطاقات والقدرات التي يخترنها، مما ينبغي أن يحفزها إلى استثمار كل لحظة من وجوده، بأفضل ما يمكن.

إن ما يعيشه الإنسان من عمر في هذه الحياة يبدو قصيراً، قياساً إلى عمر الزمن، وإلى آمال الإنسان، ورغبته في الخلود، وهذا ما تعبّر عنه آيات عديدة في القرآن الكريم، تحكي عما يدور في نفس الإنسان تجاه الحياة بعد مغادرتها. يقول تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾^(١). ويقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾^(٢).

ويحكي عن شيخ المرسلين نوح عليه السلام: أنه جاءه ملك الموت ليتوفاه بعد أكثر من ألف سنة عاشها قبل الطوفان وبعده، فسأله: يا أطول الأنبياء عمراً، كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر.

إن ما يخسره الإنسان من ماله وسائر ممتلكاته ومكاسبه يمكن تعويضه، والتوفّر على بدائله، لكن الوقت هو الشيء الذي لا يعوّض ما فات منه، ولا يمكن تداركه، فكل لحظة تمضي لا تعود، وكل يوم ينقضي لا يرجع. فهو رصيد محدود، ورأس مال نادر، بل هو رأس المال الحقيقي للإنسان، فلا بد من الحفاظ عليه، والاستفادة منه بأعلى حد ممكن.

(١) سورة المؤمنون: الآية ١١٣.

(٢) سورة يونس: الآية ٤٥.

وفي الحقيقة فإن الوقت هو الحياة يقول الإمام علي (عليه السلام): «إنما أنت عدد أيام، فكل يوم يمضي عليك يمضي ببعضك» ويقول (عليه السلام): «ما نقصت ساعة من دهرك إلا بقطعة من عمرك». وقال الشاعر:

كل يوم يمر يأخذ بعضي يورث القلب حسرة ثم يمضي
وقال شاعر آخر:

إننا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى جزء من العمر
وروي عن رسول الله أنه قال: «كن على عمرك أشح منك على درهمك ودينارك»^(١).

وتنبيهاً للإنسان على أهمية الزمن يقسم الله تعالى في القرآن الكريم بالعديد من الفواصل والمحطات الزمنية، كما في الآيات التالية:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾^(٢).

﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾^(٣).

﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾^(٤).

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^(٥).

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٧٦.

(٢) سورة الليل: الآيتان ١-٢.

(٣) سورة الفجر: الآيتان ١-٢.

(٤) سورة الضحى: الآيتان ١-٢.

(٥) سورة العصر: الآيتان ١-٢.

هذه النصوص والتعاليم تربي الإنسان على احترام الوقت والاهتمام باستثماره، وأن يتصرف فيه بمسؤولية وتقدير، ليستطيع تحقيق أكبر قدر من الإنجازات والمكاسب.

فهو مسؤول أمام الله تعالى عن تعامله مع أوقات حياته، عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه...» رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح.

وكما يهتم الإنسان باحترام وقته واستثماره، عليه أن يحترم أوقات الآخرين، فلا يكون سبباً في تضييعها وإهدارها بعدم الالتزام في المواعيد، والزيارة في الأوقات غير المناسبة لهم، وإطالة اللقاء والحديث دون فائدة أو غرض.

إن احترام الوقت هو أحد أهم مقاييس التقدم للأفراد والمجتمعات.

تنوع المهام والأبعاد:

وهذه هي الزاوية الثانية من الرؤية الدينية لوقت الفراغ، فالإنسان كائن مميز، لشخصيته أبعاد مختلفة، فهو مادة وروح، نفس وجسد، وهو مواطن في عالمين: الدنيا والآخرة، له مصالحه الفردية وارتباطاته الاجتماعية، يتمتع بقدرات ذهنية عقلية وقوى عضلية بدنية..

هذه الأبعاد المختلفة لشخصيته تجعله متنوع الأدوار والمهام،

بسبب تنوع قدراته وطاقاته، وإذا ما حصر الإنسان نفسه ضمن بعد واحد، فإنه يئد ويكبت سائر الجوانب والأبعاد.

كما أن استغراق الإنسان لوقته في عمل واحد، قد ينتج عنه الملل والسأم، لذلك تنصح التعاليم الدينية بأن يقسم الإنسان وقته على وظائفه ومهامه المختلفة، لتنمية شخصيته في مختلف الأبعاد، وتلافياً للتعب والملل. فيكون وقت الفراغ من عمل، فرصة للانتقال إلى عمل من نوع آخر.

وحتى في العبادة المستحبة، لا ينصح الدين بالاستغراق فيها إلى حد فقدان الرغبة والنشاط، ورد في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة عنه أنه قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دُوم عليه وإن قل»^(١) وفي حديث آخر عن أنس رضي الله عنه: «ليصل أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر قعد»^(٢).

ومما رواه النبي ﷺ عن صحف إبراهيم عليه السلام: «ينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب» رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال:

(١) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ٧٨٢.

(٢) المصدر السابق: حديث رقم ٧٨٤.

صحيح الإسناد كما في الترغيب^(١).

وروي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنه قال: «اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان والثقات، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات»^(٢).

من خلال هذه الرؤية تصبح العطل والإجازات من الدراسة والعمل، فرصة لتنمية أبعاد أخرى في شخصية الإنسان، وللقيام بأدوار ومهام في ميادين وحقول ثانية.

إن الله تعالى يخاطب نبيه محمداً عليه السلام بقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾^(٣) أي إذا فرغت من مهمة ودور، فانتصب لمهمة أخرى، ودور آخر.

إن لكل جهة في حياة الإنسان حقوقاً ومستلزمات، فلا يصح أن يستهلك جهده في جهة واحدة على حساب بقية الجهات، روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن لبدنك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً».

(١) القرضاوي: الدكتور يوسف، الوقت في حياة المسلم، الطبعة الخامسة ١٩٩١ م (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص ١٩.

(٢) بن شعبة الحراني: محمد بن الحسن، تحف العقول، ص ٣٠٢.

(٣) سورة الشرح: الآيتان ٧-٨.

مشروعية الترويح:

أما الزاوية الثالثة فهي ما تشير إليه النصوص والتعاليم الدينية، من مشروعية الترويح عن النفس، وممارسة بعض البرامج الترفيهية.

تجاه وقت الفراغ، وطريقة التعامل معه، نجد أمامنا ثلاثة اتجاهات: يتمثل الأول في النظرة الجادة للوقت، ورفض التفریط بأي ساعة من ساعاته خارج إطار العمل، وتحمل الالتزامات والمسؤوليات. ولعلنا نجد في حماس اليابانيين للعمل، وعدم رغبتهم للتعطيل، والاستفادة من الإجازات، أنموذجاً لهذا الاتجاه، حتى إن نسبة من الوفيات لديهم تحصل بسبب إرهاق العمل، ذكر «ميشيل الير» في كتابه (الرسمالية ضد الرأسمالية): أن ١٠٪ من الذكور البالغين الذين يموتون في اليابان كل عام، يقتلون أنفسهم بكثرة العمل، ويحصل اليابانيون على أسبوع واحد إجازة في السنة، واقرحت الحكومة اليابانية تخفيض ساعات العمل من ٤٤ ساعة إلى ٤٢ ساعة أسبوعياً، ولكن الأكثرية من الشعب تخالف هذا الاقتراح.

أما الاتجاه الثاني فعلى العكس من ذلك، حيث ينظر إلى الفراغ والتحلل من واجبات العمل، كهدف وطموح، ويتعاطى مع الالتزامات العملية، كحالة اضطرارية قسرية، يبحث عن أي فرصة للتهرب منها. والتقارير التي تتحدث عن ضعف مستوى الإنتاجية لدى شعوب الدول النامية، مؤشر على شياع هذا الاتجاه فيها.

إن بعض العمال والموظفين يختلق المبررات لأخذ الإجازة للتغيب عن العمل، ويأتي متأخراً عن وقت الدوام، ويخرج قبل انتهائه، وأثناء وقت العمل، يصرف وقتاً كثيراً في قضايا الشخصية، من شرب الشاي، أو محادثة زملاء، أو التكلم تليفونياً، وما أشبه ذلك من الظواهر المؤسفة الشائعة، التي بسببها يتدنى الإنتاج، ويتأخر إنجاز الأعمال.

والاتجاه الثالث يتبنى نظرة تكاملية تعتبر الفراغ وجهاً آخر لعملية العمل، فهما جانبان متفاعلان يُثري كل منهما الآخر.

ففي وقت الفراغ، يمارس الإنسان بعض برامج الترويح والترفيه عن النفس، بهدف تجديد النشاط، وإراحة الأعصاب، وتنفيس ضغوط العمل وصعوباته.

ونجد في التعاليم الدينية إقراراً لمشروعية الترويح والترفيه عن النفس. فقد روي عن النبي ﷺ قوله: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كَلَّتْ عميت».

وعن الإمام علي عليه السلام: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها».

وفي كلمة أخرى يقول عليه السلام: «إن هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم».

والقرآن الكريم يوجهنا إلى التأمل في الطبيعة، والاستمتاع

بجمالها، والتفكر في عظمة الخالق المبدع..

كما وردت نصوص دينية كثيرة في التشجيع على الأسفار والرحلات، وتجزير الفكاهة والمزاح المناسب، وتحث على الرياضة، من سباحة وركوب خيل، وسباق وغير ذلك.

لقد أصبح واضحاً في المجتمعات الحديثة تأثير وقت الفراغ في مستوى العمل، فإزداد الاهتمام ضمن العمل بساعات الترفيه وفترات الراحة والإجازات، من أجل أن يتمتع العامل بوقت فراغه، بصورة تنعكس إيجابياً على أدائه للعمل.

إن برامج الترويح عن النفس مصدر حيوية ونشاط، ودافعيه للإنجاز، وهو ما أشار إليه حديث الإمام موسى الكاظم عليه السلام بقوله: «اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان الثقات، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرم وبهذه الساعة تقدرון على الثلاث ساعات».

فساعة الترويح عن النفس، تجدد نشاط الإنسان وقدرته على أداء مهامه وإجاباته، في الأبعاد المختلفة.

التخطيط والبرمجة للعطلة الصيفية :

يتعامل كثيرون مع أيام العطلة الصيفية وسائر إجازات العمل

والدراسة، وكأنها مدة إضافية من الزمن، ليست من حساب أعمارهم، ولا تشكل جزءاً من رصيد حياتهم، لذلك يهدرون أوقاتهم خلالها، ولا يخططون للاستفادة منها، فتتصرم أيامها دون أن يحققوا لأنفسهم إنجازاً يُذكر.

إن عدم التفكير والتخطيط لاستثمار وقت الفراغ في العطلات والإجازة، قد يحولها من مبعث راحة، وتجديد نشاط، إلى مصدر كآبة وملل، ومن فرصة تنمية وبناء للذات، إلى أرضية سوء تُثبت المفساد والأشواك.

قد يشعر الإنسان بالارتياح، في اليوم الأول والثاني من أيام الإجازة، لتحرره من التزامات العمل أو الدراسة، لكنه بعد ذلك سيعاني من ضغط الفراغ، إن لم يكن له برنامج بديل، أو اهتمامات تشغل نفسه ووقته، فحين لا يجد الإنسان ما يهتم به، يصيبه إحساس بالضياع واللاقيمة، كما قد تتسلل إلى نفسه اهتمامات سيئة، لملء فراغه النفسي والعملية.

يتحدث شاب جامعي عن نظرتة لحالة الفراغ قائلاً: «وقت الفراغ في نظري، هو الوقت الذي لا أفعل فيه أي شيء، أي أنني أكون في هذا الوقت غير مشغول بممارسة أي نشاط سواء كان نشاطاً ذهنياً أم عملياً.. وهذا الوقت هو أكثر الأوقات سبباً في الإحساس بالملل، بل إنه ممل جداً بالنسبة لي، ولا أستطيع احتمالته أكثر من ربع ساعة، والسبب في

ذلك أن هذا الوقت يعطي للعقل فرصة في أن يفكر في أشياء كثيرة، تجعل الإنسان يصاب بحالة اكتئاب نفسي، لأنه في الغالب تكون هذه الأشياء جزءاً من مخزون المشاكل التي تواجه الإنسان يومياً، ولذلك فأحسن تعبير يطلق على وقت الفراغ هو الوقت القاتل»^(١).

التوجهات السيئة :

غالباً ما يكون الفراغ أرضية للانحراف، ودافعاً للتوجهات السيئة، حيث لا يشعر الإنسان بوجوده وقيّمته، إلا إذا كان له تفاعل ما مع قضايا الحياة من حوله، فإن لم يتوفر له ما يمنحه هذا الشعور إيجابياً، فسيعاني حالة فراغ نفسي، تتولد منها هواجس وتصورات غير منضبطة، كما قد تتحرك لديه بعض النوازع والرغبات غير السليمة، التي هي تحت السيطرة في الأوضاع العادية السوية.

وأخطر ما يكون الفراغ في مرحلة الشباب، حيث يمتلك الشاب قوة فائضة، تبحث عن قنوات للتصريف، وحماساً كبيراً، يدفع نحو الفاعلية والنشاط. فإذا كانت أمامه برامج وأدوار، وخيارات مناسبة، تشغل اهتمامه، وتنمي شخصيته، وتفعّل قدراته بالاتجاه الصحيح، فإن ذلك سيكون لصالحه وصالح المجتمع.

أما في حالة الفراغ فإن الشاب يكون فريسة لمشاعر الملل

(١) محمد: الدكتور محمد علي، وقت الفراغ في المجتمع الحديث، ١٩٨٥م، (بيروت: دار النهضة العربية)، ص ٢٤٤.

والإحباط، ولقمة سائغة لتيارات الفساد والانحراف، وهذا ما تعاني منه كثير من المجتمعات المعاصرة.

وكما اشتهر على الألسن قول الشاعر - أبو العتاهية -:

إن الفراغ والشباب والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة
وقال شاعر آخر:

لقد هاج الفراغ عليه شُغلاً وأسباب البلاء من الفراغ
وينقل عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أنه قال لعامله: (إن هذه
الأيدي لا بد أن تشغل فأشغلها بطاعة الله قبل أن تشغلك بمعصيته)^(١).
وروى البيهقي عن عبد الله بن الزبير قال: أشر شيء في العالم
البطالة^(٢).

ومن أخطر السلبات التي تنتج عن الفراغ، حالة الملل والسأم
وهي مؤذية للنفس، مربكة لشخصية الإنسان، وهناك مقولة متداولة
هي: (أن تشعر بالملل هو أن تقبل الموت)، والملل قد يدفع الإنسان
إلى تصرفات عبثية ضارة، من أجل التخلص من الملل والخروج من
عبء وطأته.

إن عدم التخطيط لاستثمار وقت الفراغ، وخاصة في العطلة

(١) السدحان: عبد الله بن ناصر، وقت الفراغ وأثره في انحراف الشباب، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، (الرياض مكتبة العبيكان)، ص ٥٤.

(٢) القرضاوي: الدكتور يوسف، الوقت في حياة المسلم، ص ٢٧.

الصيفية والإجازات، وعدم الاهتمام بتوفير البرامج المناسبة من قبل الفرد والمجتمع، هو الذي ينتج العديد من الظواهر السلبية، التي تعاني منها مجتمعاتنا، ونلاحظها في حياة الكثيرين في أوقات فراغهم، ومن أبرزها الظواهر التالية:

كثرة النوم؛

يجد البعض في العطلة والإجازة فرصة جيدة لزيادة ساعات نومه، التي قد تصل إلى عشر ساعات أو أكثر. بينما يكون معدل نومه أيام الدراسة والعمل في حدود ست ساعات أو سبع ساعات في أقصى حد.

لا شك أن النوم حالة طبيعية، وضرورة بيولوجية للإنسان، كما لسائر الكائنات الحية، وأنه يخدم وظائف أساسية، مهمتها استعادة الإنسان لنشاطه، وللمقومات التي يعتمد عليها هذا النشاط، وإعادة التوازن الذي اختل أثناء ساعات اليقظة.

ومن الواضح أن النائم يفقد إدراكه بما يحيط به، ويتوقف إحساسه بالحياة، وتفاعله معها. حيث تتضاءل جميع أنشطته، وترتخي عضلاته، وتتباطأ ضربات القلب، وينخفض معدل التنفس.

فالنوم في مظهره يشكل شبه خروج مؤقت للإنسان عن معادلة الحياة. وإذا كان الإنسان ينام ثماني ساعات، في كل أربع وعشرين ساعة، فمعنى ذلك أن ثلث عمره يكون خارج دائرة الإحساس

والتفاعل مع الحياة، ومن يحب الحياة، ويتبنى فيها أهدافاً وتطلعات، عليه أن يحرص على كسب أي ساعة ولحظة منها، والنوم فيما يزيد منه على الحاجة والضرورة، بمثابة هدر وتضييع لجزء من العمر.

لقد افترض الكثيرون: بأن الحاجة اليومية للنوم، هي ثلث ساعات اليوم الواحد، أو ما معدله ٨ ساعات، في كل ٢٤ ساعة، واعتبر البعض: أن الإخلال بهذا المعدل، يلحق الأذى بصاحبه، لكن بحوث العلماء، والتجارب الميدانية والإختبارية، أظهرت: أن معظم الناس ينامون لمعدل زمني يقع بين ٥ إلى ٦ ساعات في اليوم الواحد، بينما ينام البعض لمدة أقل من ذلك، حدها الأدنى ٤ ساعات، وأن التفاوت في معدل النوم بين الناس يتأثر بعوامل شخصية تتعلق بالفرد نفسه.

وقد لوحظ بأن أولئك الذين يعيشون حياة نشطة وخلاقة ومجدية، وخالية من الهم، فإن حاجتهم للنوم، هي أقل من حاجة أقرانهم، ممن لا يظهرون مثل هذه الصفات.

ويقرر باحثون أخصائيون: بأن الحد الأدنى للحاجة إلى النوم في الفرد النامي، ذكراً أو أنثى، يقع ما بين ٤ إلى ٥ ساعات في اليوم، وقد يكون فيما يزيد على هذا الحد إضافة لا حاجة هامة لها، وبأن بإمكان الفرد أن يستغني عنها^(١).

(١) كمال: الدكتور علي، أبواب العقل الموصدة - باب النوم و باب الأحلام، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، (بيروت: دار الجيل)، (عمّان الدار العربية)، ص ١١٨.

وتحديد مدة النوم وزمنه، يخضع لما يعود الفرد عليه نفسه، ضمن الظروف والحالة الطبيعية، فإذا برمج وضعه على مدة معينة للنوم، فسيستظم عليها، وقد ينزعج للإخلال بها.

ويتضح من دراسات علمية عديدة، للمقارنة بين سمات وصفات فئة الأفراد طويلي النوم، وفئة الأفراد قصيري النوم: أن قصيري النوم هم أكثر نشاطاً وفعالية، وأكثر طموحاً، واتخاذاً للقرار، وأكثر رضى عن أنفسهم وحياتهم، وأكثر اجتماعية، وهم قليلو التشكي بشأن دراستهم وظروف حياتهم، وهم يتصفون بالانفتاح، وقلة القلق، ويشغلون أنفسهم بصورة دائمية بفعالية أو أخرى، وقلما يعانون من مشاكل نفسية، ويتضح من هذه الخصائص أن قصر النوم يتوافق عادة مع مقومات أفضل في الشخصية، ومع حياة نفسية واجتماعية وإنتاجية أفضل. ولهذا أن يدلل بأن النوم وإلى حد ما، هو أقل ضرورة أو فائدة لصاحبه مما كان يظن^(١).

إنه ينبغي التعامل مع النوم ضمن حالة الحاجة والضرورة، وليس كهواية يستمتع بها الإنسان فيستكثر منها.

وما نراه عند البعض، من زيادة وقت نومهم أيام العطلة والإجازة، يعتبر ظاهرة سلبية، تحرم الإنسان من الاستفادة المناسبة من وقت فراغه.

(١) المصدر السابق، ص ١٥٧.

ونجد في النصوص والتعاليم الدينية ما يؤكد أهمية التقليل من النوم، ويلفت نظر الإنسان إلى سلبيات الإكثار منه.

جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «إياكم وكثرة النوم، فإن كثرة النوم يدع صاحبه فقيراً يوم القيامة»^(١) ومعنى الحديث واضح لأن كثرة النوم ستكون على حساب العمل الصالح والذي هو غنى الإنسان وثروته في الدنيا والآخرة.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إن الله يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ»^(٢).

وعنه في حديث آخر: «كثرة النوم مذهبة للدين والدنيا»^(٣).

هدر الأوقات:

لضعف الإحساس بالمسؤولية تجاه الزمن، وللتصور الخطأ عن وظيفة وقت الفراغ، فإن البعض يهدرون أوقاتهم خلال العطلة الصيفية والإجازات بشكل مؤسف، ويتحدثون بكل صراحة عن قتل وقت الفراغ. إما عبر جلسات فارغة، تستمر ساعات طويلة، دون فائدة أو قيمة، أو بالتسكع على أرصفة الشوارع والطرق.

إن لقاء الأصدقاء والجلوس معهم أمر جيد، شريطة أن يكون ضمن

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٨٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

الحدود الطبيعية، وأن يستثمر في تعميق أواصر المودة، والاستفادة الفكرية والعملية، بمناقشة موضوع مفيد، أو تنمية موهبة وكفاءة. لكن جلسات قتل الوقت تأخذ منحى آخر، إذ تطول ساعات دون مبرر، ولا يتخللها إلا كلام تافه، قد يكون سبباً للمشاكل والآثام.

التلقي السلبي:

أصبحت وسائل الإعلام المتقدمة، وتكنولوجيا الاتصالات المتطورة، قنوات البث الفضائي، وشبكة الإنترنت، تستهلك جزءاً كبيراً من وقت الإنسان المعاصر. وهي تفتح أفقاً معرفياً واسعاً أمام الإنسان، وتقدم له خدمات عالية، آخذة في الاتساع.

وفي أيام إجازات الدراسة والعمل يتضاعف الإقبال على هذه الوسائل، حيث يقضي أمامها الكثيرون ساعات طويلة كل يوم.

وتتمثل سلبية التعاطي مع وسائل الإعلام والاتصالات في جانبين:

الأول: استهلاك الوقت دون حدود، وعلى حساب سائر المهام والأبعاد من شخصية الإنسان والتزاماته، حتى أشار تقرير نشر قبل عشر سنوات، إلى أن بعض الطلاب عندما يتخرج في المرحلة الثانوية يكون قد أمضى أمام جهاز التلفزيون قرابة (١٥) ألف ساعة، بينما لا يكون أمضى في فصول الدراسة أكثر من (١٠٨٠٠) ساعة على أقصى تقدير، أي في حالة كونه مواظباً على الدراسة، محدود الغياب.

ومعدل حضور بعض الطلاب في الجامعة (٦٠٠) ساعة سنوياً، بينما متوسط جلوسه عند التلفزيون (١٠٠٠) ساعة سنوياً^(١).

وقد سبب الانجذاب غير المقنن إلى وسائل الإعلام والاتصالات، انخفاضاً في الأداء التعليمي، عند شريحة واسعة من الطلاب والطالبات.. كما سبب تدنياً في مستوى العلاقات العائلية، واهتمام الزوجين ببعضهما، واهتمامهما بالأبناء. ويحصل كثيراً أن تهمل الأم أطفالها، من أجل متابعة أحد الأفلام أو المسلسلات.

أما قراءة الكتب، وبرنامج التثقيف الذاتي، فقد أصبح في خبر كان، عند أكثر أبناء هذا الجيل، المستقطب إعلامياً ومعلوماتياً.

الثاني: أما الجانب الثاني فهو سوء الاختيار وسلبية التلقي، فهناك أكثر من ٥٠٠ قناة عالمية تبث مختلف البرامج ليل نهار، وهناك ملايين المواقع على شبكة الإنترنت، تعرض كل شيء دون حدود أو قيود، فإذا لم تكن للإنسان قيم وضوابط في اختياره لما يشاهد ويتابع، فإنه سيكون فريسة سهلة، ولقمة سائغة، للتوجهات الفاسدة، التي تحرّض الغرائز والشهوات، وتشجّع على العنف والإجرام، وتروج لأنماط سلوكية مخالفة للمحيط الاجتماعي، وهي في مجملها أدوات للعولمة الثقافية، التي تريد إلغاء الهويات الحضارية لمختلف الشعوب والأمم، لتذويبها في بوتقة الحضارة الغربية المادية.

(١) العمر: الدكتور ناصر بن سليمان، البث المباشر حقائق وأرقام، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (الرياض: دار الوطن للنشر)، ص ١٤.

إن الإنسان ليحرص على صحة جسمه فلا يتناول طعاماً ملوثاً، وكذلك عليه أن يحرص على صحة فكره وسلوكه، فلا يتلقى المشاهد والتوجهات السلبية الضارة. يقول الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «عجبت لمن يتفكر في مأكوله كيف لا يتفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه»^(١).

وإذ يتمتع الإنسان بنعمة السمع والبصر من الله سبحانه وتعالى، فإنه يتحمل المسؤولية تجاه طريقة استخدامهما يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٢).

الفراغ والانحراف:

إن من أسوأ الظواهر التي تنتج عن فراغ العطلة الصيفية، إذا لم تستثمر بالبرامج الصالحة، هي ظاهرة التصرفات الشاذة، والسلوكيات المنحرفة، في وسط الجيل الناشئ.

ذلك أن الشعور بالفراغ يدفع لتقبل أي اهتمام، وعادة ما يصحب التوجهات الخطأ إغواء وإغراء، ولقلة النضج والخبرة عند الشباب والمراهقين، يكون انزلاقهم سهلاً.

وتؤكد الأبحاث والتقارير، دور مشاهدة الأفلام والبرامج

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١، ص ٢١٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

السيئة، في الاندفاع نحو الانحرافات الجنسية، وأعمال العنف، لدى المراهقين والمراهقات، كما أن استخدام شبكة الإنترنت، كثيراً ما يكون وسيلة إغواء يستجيب لها الشباب، وخاصة في فترة الفراغ، فيدخلون عبرها على مواقع إباحية، ويرتبطون بعلاقات ضارة.

ويذكر عبد الرحمن مصيقر في دراسته عن الشباب والمخدرات في دول الخليج العربي: أن دراسات أجريت في بعض الدول العربية عن متعاطي المخدرات تبين أن أغلبهم كانوا يشغلون بها وقت فراغهم^(١).

ونقل باحث آخر، نتائج بعض الدراسات التي أجريت حول علاقة وقت الفراغ بالانحراف، وتوصلت إلى ما يلي:

- أ. أن أغلبية الأفعال الانحرافية يرتكبها الفرد أثناء وقت الفراغ.
- ب. أن نسبة كبيرة من الانحرافات ترتكب بقصد الاستمتاع بوقت الفراغ^(٢).

إن حالة الهدوء والاستقرار في كثير من الأحياء السكنية، تتعرض للاهتزاز والاضطراب، عند أول يوم من أيام العطلة الصيفية، حيث يمارس عدد من الشباب هواية التفحيط بسياراتهم، والقيام بحركات بهلوانية حتى وسط الأحياء السكنية، ويمتطي بعضهم دراجات

(١) مصيقر: عبد الرحمن، الشباب والمخدرات في دول الخليج العربية، ص ٦٦، شركة الربيعان للنشر والتوزيع - الكويت.

(٢) السدحان: عبد الله بن ناصر، وقت الفراغ وأثره في انحراف الشباب، ص ٢٢.

نارية ذات صوت مرتفع مزعج، وينتشر بعض الشباب في الطرقات والأماكن العامة، ليقوموا بتصرفات شاذة، منافية للأدب والاحترام.

وتحسب العوائل ألف حساب للسيطرة على أبنائها عند تعطيل الدراسة، كما تستعد الأجهزة الأمنية للتعامل مع ارتفاع معدل الحوادث والجرائم والمشاكل السلوكية، خلال العطل والإجازات.

وليس مبالغة أن نقول: إن العطلة الصيفية تخرج كل عام أفواجا من الملتحقين بتيارات الفساد والانحراف ورد عن الإمام علي (عليه السلام) أنه قال: «من الفراغ تكون الصبوة» أي الممارسات السيئانية. وعنه (عليه السلام): «إن يكن الشغل مجهدا فالفراغ مفسدة».

إن ذلك يؤكد مسؤولية الجميع في الاهتمام بالتخطيط السليم لوقت الفراغ، والعمل على احتواء واستيعاب الطلاب والطالبات خلال العطلة الصيفية، لمساعدتهم على استثمارها بما يخدم مستقبلهم ومصلحة الوطن.

لقد كان أرسطو على حق، وبعيد النظر حين رأى أن أهم أهداف التربية، هو تعليم الناس، كيف يستطيعون تمضية أوقات فراغهم، واستغلالها بصورة إيجابية ومفيدة.

بناتنا في طريق العلم

مهمة إعمار الأرض واستثمار الخيرات المودعة في الكون، موكولة للإنسان بشقيه الذكر والأنثى، فحينما يقول الله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(١) - أي طلب منكم وأوكل إليكم عمارة الأرض - وحينما يقول تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢). فإن هذا الخطاب الذي جاء في القرآن الكريم مكررا وبصيغ مختلفة، موجه ليس إلى الرجال فقط وإنما هو عام لأفراد البشر رجالا ونساء.

ومن أساسيات القيام بهذه المهمة، والاضطلاع بدور إعمار الأرض، تحصيل العلم والمعرفة، فبالعلم يكتشف الإنسان قدراته، ويتعرف إلى ثروات الكون، ويبتكر وسائل وسبل استثمارها

(١) سورة هود: الآية ٦١.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٠.

والاستفادة منها.

وقد وهب الله تعالى قابلية المعرفة، وملكة الاستيعاب والتعلم للزوجين الذكر والأنثى، ولم يختص أحدهما دون الآخر، وذلك لكي تشارك المرأة الرجل في كسب العلم والمعرفة، وفي جهود التنمية والإعمار.

فالمراة كالرجل توازيه في إنسانيته، وتشاركه في القيام بدور الخلافة، وتحمل مسؤولية عمارة الأرض، وقد منحها الله تعالى كالرجل نعمة العقل، وقدرة الإدراك والمعرفة، ولا تختلف عنه في كونها تملك استعدادا وقابلية تامة لإدراك الحقائق والمفاهيم، وتملك - كالرجل - القدرة على العلم والتعلم والسير في هذا الطريق إلى أقصى غاياته.

بل إن دماغ النساء يحتوي على خلايا الدماغ المسماة العصبونات بنسبة تزيد حوالي ١٠٪ عن دماغ الرجال، بالرغم من أن الرجال بصفة عامة أكبر حجماً من النساء وأدمغتهم كذلك أكبر حجماً^(١).

وقد نشرت الدكتورة «كيمورا» الباحثة في الأسس العصبية والهرمونية للوظائف الفكرية - الذهنية - لدى الإنسان، وهي أستاذة في علم النفس في جامعة غربي أونتاريو، نشرت بحثاً علمياً حول

(١) الموسوعة العربية العالمية: الطبعة الثانية ١٩٩٩ هـ، الرياض، السعودية، ج ١٠، ص ٣٦٦.

الفوارق في الدماغ بين الجنسين، أكدت فيه وجود تفاوت متبادل في بعض الجوانب والمهارات، حيث يقابل تفوق كل طرف في جانب تفوق الطرف الآخر في جانب آخر، وخلصت إلى «إن الفوارق الجوهرية بين الجنسين تكمن في الطرز المختلفة للمهارات الفكرية التي يتمتع بها كل منهما أكثر مما هو راجع إلى المستوى العام للذكاء (حاصل الذكاء) فمن المعروف أن هناك تفاوتاً بين الناس في قدراتهم الذهنية: فبعضهم من يبرع في الجوانب اللغوية ومنهم من يجيد الأعمال اليدوية، وهكذا يمكن لشخصين أن يتمتعوا بمستوى واحد من الذكاء مع اختلاف في نمط المهارات التي يجيدها كل منهما»^(١).

نساء رائدات:

وفي مختلف حقول العلم والمعرفة، وساحات الإنتاج والتنمية، هناك عطاء واسهام مميز قدمته نماذج نسائية رائدة، شاركت في صنع أروع الإنجازات العلمية والتكنولوجية.

ففي هذا العام، أسند كوفي عنان السكرتير العام للأمم المتحدة إدارة برنامج الأمم المتحدة لاستخدام الفضاء الخارجي للأغراض السلمية إلى البروفسورة الماليزية المسلمة «مازلان عثمان» عالمة الفلك المعروفة عالمياً.

(١) كيمورا: الدكتورة، الفوارق في الدماغ بين الجنسين، مجلة العلوم - الترجمة العربية لمجلة العلوم الأمريكية - مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، المجلد ١٠، العدد ٥، مايو ١٩٩٤م، ص ٧٦.

و «مازلان عثمان» أستاذة في أكاديمية العلوم الماليزية، كما أنها أستاذة في المعهد الفيزيائي التابع للجمعية الملكية لعلوم الفلك، وفي المؤسسة الماليزية للعلوم. وقد تقلدت مؤخراً الدكتوراه الفخرية من جامعة أوتاجو.

وبالإضافة إلى مناصبها الأكاديمية والبحثية والدولية، فإنها متزوجة، وقد رزقها الله ولداً وبتاً.

وحتى تعيينها في المنصب الجديد، عملت مديرة لقسم العلوم والدراسات الفضائية في ماليزيا، وسبق أن قامت بتدريس العلوم الفيزيائية في جامعة أوتاجو ودوندين في نيوزلندا، كما حصلت على منحة لنبوغها؛ من جامعة كولومبو حصلت على إثرها على إجازة في العلوم الفلكية الطبيعية.

وأسهمت في إنشاء قسم علوم الفضاء التابع للحكومة الماليزية، وشغلت منصب المديرة العامة للبرنامج الوطني الماليزي لعلوم الأقمار الصناعية الذي تمكن من تصنيع القمر الصناعي الماليزي (تيونج سات ١) الذي أطلق في مطلع عام ٢٠٠٠ الحالي. وقد ألقت العديد من الكتب والأبحاث في أبحاث الفضاء والفيزياء، فضلاً عن أبحاثها المتعلقة بتحقيق التنمية المستدامة، وأسهمت أيضاً في جهود فريق الخبراء الماليزيين المختص بدراسة موجات الجاذبية في الفضاء^(١).

(١) النور: مجلة شهرية، بيت التمويل الكويتي العدد ١٨٤، ربيع الآخر ١٤٢١هـ، يوليو ٢٠٠٠م.

ومن النماذج الرائدة المهندسة «زهراء حديد» التي تُعدُّ الآن أشهر المهندسين المعماريين العالميين وهي مسلمة عربية عراقية، وقد فازت على ٢٧٠ مهندساً عالمياً في تصميم بناء جسر لندن، واستهوتها الهندسة المعمارية منذ صغرها، لكن رئيس كلية الهندسة في بغداد رفض قبولها بعد إكمالها الثانوية، باعتبارها فتاة لا تصلح لمهنة الهندسة الرجالية - حسب رأيه - ونصح والدها أن تتوجه ابنته بموهبتها نحو الرسم، لكنها أصرت على طموحها، والتحقّت بالكلية المعمارية في لندن، واحتلت فيما بعد لفترة سنة، كرسي الأستاذية في كلية الهندسة في جامعة هارفرد، وفازت على أشهر المعماريين الغربيين - (٥٣٨) مهندساً - بتصميم بناية (القمة) في هونغ كونغ عام ١٩٨٢ م، كما فازت على ٩٧ مهندساً عالمياً بتصميمها لبناء متحف الفنون الحديثة في ولاية سينسيناتي الأمريكية^(١).

الإقبال على التعليم؛

ونلاحظ لدى بناتنا رغبة جامحة وإقبالاً كبيراً على التعليم، فعدد الطالبات في المملكة يزيد على المليونى طالبة، ويصل عدد الجامعيات منهن إلى أكثر من ١٢٦ ألف طالبة يدرسن في مختلف التخصصات العلمية والأدبية.

(١) الحياة: جريدة يومية تصدر من لندن، العدد ١٣٠٤٧ - ٢٣ نوفمبر ١٩٩٨ م، والعدد ١٢٣٠٨ - ٦ نوفمبر ١٩٩٦ م.

ويتجلى هذا الشوق العلمي لدى بناتنا بتزاحمهن على التسجيل من أجل السبق بإحراز فرص الدراسة، حيث ضاق استيعاب الجامعات والكليات عن نسبة كبيرة منهن، وحتى من ذوي المعدلات الرفيعة ما فوق ٩٠٪.

كما يتحمل قسم منهن عناء الغربة والابتعاد عن الأهل من أجل مواصلة الدراسة الجامعية. وبالطبع فإن ابتعاد الفتاة عن بيتها وأهلها يسبب لها مشاكل كثيرة ويضعها أمام تحديات صعبة.

ونأمل أن تتمكن الجهات المشرفة على تعليم البنات بعون الله تعالى في المستقبل القريب من زيادة قدرة الاستيعاب للراغبات في الدراسة الجامعية، ومن توفير فرص الدراسة للبنات في مناطقهن، فذلك أيسر لهن وادعى للحفاظ على أجواء الصلاح والالتزام.

تحديات الاغتراب:

في الوقت الذي نقدر فيه لبناتنا رغبتهن وشوقهن للدراسة حتى ولو استلزمت عناء الغربة ومشاق السفر، فإننا نلفت النظر إلى التحديات التي تواجه الفتاة حينما تبتعد عن أهلها، وتقيم في منطقة أخرى لمواصلة دراستها، وذلك من أجل أن تأخذ الفتاة استعدادها لمواجهة هذه التحديات، وأيضاً لكي تقوم العائلة والمجتمع بالدور المطلوب لمساعدتها في تجاوز هذه المرحلة المهمة. صحيح أن المواطن ما دام في ربوع وطنه، وتحت رايته الخفاقة لا يُعَدُّ غريباً، لكن مفارقتها

لمنطقته ومجتمعه وأهله هو نوع من الغربة.

واغتراب الفتاة للدراسة الجامعية يأتي في فترة حساسة من حياتها، حيث تكون في أوج مرحلة المراهقة، وذروة نضجها الجسمي والعاطفي مما يجعلها بأمس الحاجة الى أجواء الرعاية والتوجيه، تماماً كأخيها الشاب الذي يعيش الحالة نفسها في مرحلة شبابه.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأجواء الإعلامية المفتوحة، من قنوات فضائية، وشبكات الإنترنت، ومختلف وسائل الاتصالات الإعلامية والثقافية، التي تمارس التحريض للشهوات، والإثارة للأحاسيس والعواطف، وخاصة لجيل الشباب والشابات. وإذا ما علمنا ان هناك عناصر شريرة فاسدة تتحين الفرص بأعراض الناس، وتستخدم وسائل الإغراء والخداع لتحقيق رغباتها السيئة. حينئذٍ ندرك مدى التحدي الذي تواجهه بناتنا المغتربات.

لذلك نلفت أنظارهن إلى الملاحظات التالية:

أولاً . التركيز الدراسي والعلمي:

فالهدف يجب أن لا يكون مجرد الحصول على شهادة، أو الوصول الى وظيفة، بل ينبغي أن تبذل الفتاة قصارى جهدها لكي تستوعب موادّ دراستها، وأن تكون متفوقة في مستواها، وأن تفكر في مواصلة دراساتها العليا، لتصل الى مستوى العطاء والإنتاج العلمي.

وقبل فترة تحدثت الصحف عن طالبة سعودية طموحة «حياة

سندي» التي كانت تدرس الطب في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ثم التحقت بجامعة كامبردج في لندن، وأثارت أساتذتها بنبوغها واجتهادها وابتكاراتها العلمية، فقدمت لها وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) عروضاً للعمل معها، وأصبحت أول عربية تحظى بمنحة دراسية من جامعة كامبردج لتحصيل درجة الدكتوراه في التكنولوجيا الحيوية، كما كانت أصغر طالبة ترسلها الجامعة بعد أربعة أشهر فقط من بدء الدراسة فيها لحضور مؤتمر علمي فازت فيه بأفضل التقارير من الحاضرين على مساهمتها هناك^(١).

إن كل طالبة من بناتنا تمثل مشروعاَ للتفوق والتقدم، شريطة توفر الطموح، والاهتمام الجاد بالدراسة والعلم، ومادامت البنت تدفع ثمنًا كبيراً من راحتها الجسمية والنفسية في تغربها للدراسة، فعليها ان تأخذ في المقابل أكبر قدر من الفائدة والكسب، ولا ترضى بإضاعة وقتها في الأشياء الثانوية والتافهة.

ثانياً . التكيف الاجتماعي:

اختلاف نمط الحياة الاجتماعية من الوسط العائلي الى الوسط الجامعي، يعتبر من التحديات الصعبة التي تواجه الفتاة، فبعد أن كانت تعيش مع عائلتها ضمن جو مألوف لديها، تتلقى فيه كل رعاية وعون، تنتقل الى سكن داخلي في الجامعة، أو ضمن مجمع للطالبات، لتجد

(١) الشرق الأوسط: جريدة يومية، لندن، ١٠/٢/١٩٩٩م.

نفسها في وسط جديد، تحتاج فيه إلى الاعتماد على نفسها، وإلى التكيف مع العناصر الجديدة من زميلاتها في السكن والجامعة اللاتي قدمن من بيئات مختلفة، في بعض عاداتها وتقاليدها وأنماط حياتها وأساليب تعاملها، وعلى الفتاة هناك أن تكون في مستوى التحدي، فتتحلى بسعة الصدر، ورحابة النفس، وتستوعب هذا المتغير الاجتماعي في حياتها، فتعتمد على ذاتها، وتقابل مدرساتها وزميلاتها والعناصر الإدارية المرتبطة بدراستها أو سكنها بأخلاق طيبة، واتزان سلوكي.

وقد سمعت من العديد من إدارات المجمعات السكنية للطالبات خارج المنطقة، ومن بعض الطالبات شكاوى كثيرة ترتبط بموضوع العلاقات الشخصية بين الطالبات اللاتي يشتركن في غرفة واحدة أو سكن واحد، إن على كل واحدة أن تقدّر ظروف الأخرى، وتتفهم أوضاعها النفسية في هذه المرحلة الصعبة، وتمدّ لها يد العون والدعم، وأن تتحمل ما قد يصدر منها من هفوات وأخطاء.

ثالثاً . الالتزام الأخلاقي والسلوكي:

وهو أخطر تحدٍ تواجهه الفتاة المغتربة، حيث تنقطع عنها رعاية وإشراف أسرتها ولا تشعر برقابة اجتماعية، وقد تصحبها زميلات غير متزنات، أو تحيط بها أجواء غير صالحة، فإذا كانت تمتلك الوعي الديني، والنضج في الشخصية، فإنها ستتمسك برزانتها وكرامتها،

وهذا ما نرجوه لكل بناتنا العزيزات.

لأن الخيار الآخر وهو الاستجابة للإغراءات، والانطلاق مع الأهواء والشهوات سيكلف الفتاة عزها ومستقبلها وستدفع هي الثمن الباهظ لا سمح الله.

فلتحفظ الفتاة دينها وشرفها، ولتكن في مستوى ثقة أهلها بها، ولا تضع تربيتهن لها، ولا تشوّه سمعة المجتمع الذي تنتمي إليه، فإن البعض من الناس إذا رأى تصرفات شاذة ولو من عناصر قليلة، فإنه يأخذ من ذلك انطباعاً سيئاً عن كل المجتمع والمبدأ الذي تنتسب إليه هذه العناصر، وكما يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا»^(١).

إشراف العائلة:

مهما كانت ثقة العائلة بابنتها، وبإدارة المجمع الذي تسكنه، فإن ذلك لا يغني عن تواصل العائلة وتفقد لها لشؤون البنت، فتواصل العائلة يوفر زخماً عاطفياً للبنت ويرفع معنوياتها أمام ما قد يواجهها من مشاكل، ويؤكد في نفسها دائماً حالة الارتباط العائلي وما تعنيه من قيم وشيم، وكذلك فإن تواصل العائلة مع إدارة المجمع السكني يشعر المسؤولين فيها باهتمام العوائل ببناتهم، وإذا ما تلقت إدارة المجمع اتصالات منتظمة من عائلة ما لتفقد شؤون ابنتهم، وللتأكيد على

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣١٠.

رعايتها، فإن ذلك يشجعهم على الانتباه والالتفات أكثر لأوضاعها وللعناية بها.

وقد أكدّ هذه الحقيقة أكثر من مسؤول في إدارة مجتمعات الطالبات، كانوا يتعجبون من أن كثير من العوائل تهمل بناتها، ولا تبدي أي اهتمام يذكر تجاه إدارة المجمع، بل ولا يتفاعلون مع الملاحظات التي تقدم لهم عن وضع البنت أو سلوكها، وقد تأخذ العائلة موقفا سلبيا من المجمع إذا أبلغت بأي ملاحظة.

وتواصل العائلة يكون عبر زيارة الأب أو الأم أو أحد المعنيين بأمر البنت، ولو مرة في السنة الدراسية، ليتعرفوا عن قرب على أوضاعها، والأجواء التي تعيشها هناك.

أو على الأقل بالاتصال التلفوني معها ومع إدارة المجمع لمناقشة أمورها، وإبداء الاهتمام والرعاية لها.

إلى إدارة المجمّعات:

وجود مجتمّعات سكنية للطالبات أمر جيد، وأفضل بكثير من السكن في شقق مستقلة متناثرة، وخاصة إذا كانت إدارة المجمع تعي مسؤوليتها الدينية والاجتماعية، ولا تتعامل مع المسألة كمورد للربح والكسب المادي فقط.

إن المسؤولين في هذه المجمّعات وهم من أبناء المجتمع،

عليهم أن يدركوا أن هؤلاء الطالبات أمانة في أعناقهم، وأن الله تعالى سيحاسبهم على كل تقصير تجاههن، إن البنت في هذه المرحلة من العمر، وفي ظروف الغربة، ومع ضغوط الدراسة وأعبائها، تحتاج إلى الكثير من الدعم والمساعدة، خاصة وأن الظروف قد لا تسمح لها بالاعتماد على نفسها في الحركة خارج السكن.

إن الشاب حينما تصيبه وعكة صحية، أو يحتاج إلى الطعام أو أي خدمة أخرى، بإمكانه أن ينزل إلى الشارع يستقل أي سيارة أجرة وفي أي وقت، لكن البنت لا تستطيع ذلك، من هنا فإن على إدارة المجمّعات توفير أكبر قدر ممكن من الخدمة للطالبات.

كما أن التعامل مع مشاكلهن يجب أن يتصف بالمرونة والتفهم، فهن من عوائل مختلفة، وطباع وأمزجة متفاوتة، على الإدارة أن تستوعب كل ذلك برحابة صدر، وسعة أفق.

ونظرا لحساسية وضعهن كفتيات في هذه المرحلة من العمر، يجب العناية في اختيار العناصر الصالحة الملتزمة من الموظفين القائمين على شؤونهن من سائقين ومسؤولين.

كما ينبغي توفير الأجواء الصالحة، والبرامج المفيدة لنشر الوعي والتوجيه الديني والاجتماعي لهن، وإذا ما واجهت الطالبة أي مشكلة دراسية أو سلوكية، فعلى إدارة المجمع الاهتمام بذلك، والتفكير في المساعدة بحكمة وإخلاص.

إن تعاليم الإسلام تحث على التعاون وقضاء الحاجة، وتقديم النصيحة، وتوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير، والتعامل مع أوضاع الطالبات هو من أفضل وأجلى موارد انطباق تلك العناوين والتعاليم الإسلامية.

بقي أن نهيب بكل المخلصين الواعين في المجتمع ممن يستطيعون تقديم أي خدمة لمساعدة بنات وطنهم ومجتمعهم، في تخطي هذه المرحلة الحساسة بخير ونجاح، فإن عليهم أن لا يتوانوا في ذلك. إن زيارة أي عالم ديني، أو شخصية اجتماعية واعية، للمجمّعات السكنية للطالبات لها أثر طيب ووقع جميل في نفوسهن، وكذلك إيصال وسائل الإرشاد والتوجيه من كتب ومحاضرات نافعة.



الاستهلاك و عادات الإسراف

تنافس رهيب وسباق محموم على مستوى العالم بين الجهات المصنّعة المنتجة، يغرق الأسواق بألوان السلع والخدمات، لمختلف احتياجات الإنسان ورغباته، ففي كل مجال من المجالات، تجد أمامك خيارات عديدة متنوعة قد يتعبك استقصاؤها، وتستعين الجهات العالمية المنتجة بخبراء ومراكز بحوث ودراسات، لتطوير إنتاجها كمّاً وكيفاً، من أجل توسيع رقعة أسواقها الاستهلاكية، ولتعزيز مداخيلها وموقعها الاقتصادي.

وتؤدي أجهزة الإعلام دوراً كبيراً في خدمة أغراض التسويق عبر أساليب دعائية إعلانية تتفنن في الإغراء واستقطاب الزبائن المستهلكين.

وحتى السياسة أصبحت توظف لصالح كبريات الشركات ومصانع الإنتاج، حيث يعمل الزعماء السياسيون للدول الصناعية، من أجل

فتح الأسواق، أمام منتجات بلادهم، وقد يمارسون الضغوط على الدول الأخرى بهذا الاتجاه، ومن أبرز الأمثلة المعاصرة الخلافات التي وقعت بين الولايات المتحدة الأميركية من جهة واليابان والصين من جهة أخرى، لإلحاحها على الدولتين لفتح أسواقهما أمام السلع الأميركية. لقد أصبح الاستهلاك والتسويق أهم قضية اقتصادية يُتوجه إليها، فالاستهلاك وقود الإنتاج ومحرك الاقتصاد، فلكي تستمر حركة التصنيع والإنتاج وتتطور لا بد من أسواق تستهلك، وزبائن تشتري، والإنتاج أصبح رهيباً وضخماً للغاية على المستوى العالمي، ويحتاج إلى تصريف واسع.

لذا يكون التنافس شديداً على الأسواق، وتبتكر مختلف الوسائل والأساليب لتشجيع الاستهلاك، من إقامة المعارض، ومهرجانات التسوق، وإعلان مواسم لتخفيض الأسعار والخصومات، وإعطاء الجوائز والمكافآت على السحب، إضافةً إلى الدعايات والإعلانات المستمرة، التي تخلق دوافع الاستهلاك، وتصنع الرغبات، وتفتعل الاحتياجات في نفوس المستهلكين.

ولأن الكثيرين من الناس وخاصة في الدول النامية، قد لا يمتلكون السيولة النقدية، التي تستجيب لرغبات الاستهلاك، فقد استحدثت معالجات لهذه الإشكالية، عن طريق البنوك التي تقدم القروض، وعبر «الفيزا كارت»، وبواسطة البيع بالأقساط.. كل ذلك لدفع الناس للشراء والاستهلاك، لتستمر ماكينة الإنتاج والتصنيع، ولتزيد ثروات

وأرباح أصحاب رؤوس الأموال وخاصة أرباب الشركات الكبرى.

أرقام ودلالات:

وتشكل مجتمعاتنا الخليجية سوقاً استهلاكية مغرية، تسعى كل جهة منتجة لأخذ حصتها المناسبة منها، وتثبت أقدامها في وسطها، ليس لكثافة سكانية في هذه المنطقة، وإنما لتوفر السيولة المالية فيها، ولسهولة التأثير على أنماط الحياة المعيشية للمجتمع، بما يخدم مصلحة المنتجين، فإنسان هذه المنطقة لا يحتاج إلى جهد كبير لإقناعه بشراء أي سلعة، ولا يتشدد كثيراً في المواصفات، ولا يجادل غالباً حول القيمة والسعر.

ولو ألقينا نظرة سريعة على بعض الأرقام المتوفرة عن النشاط الاستهلاكي في المنطقة، وخاصة حول بعض السلع الكمالية والرفاهية، لأدركنا الأهمية التي توليها الجهات المنتجة المصنعة للتسويق في هذه المجتمعات كما تظهر لنا دلالات التوجهات الاستهلاكية لدى المواطنين.

ففي مجال الأثاث: يقدر معدل النمو السنوي لسوق الأثاث في السعودية بنحو ٤٪، ويبلغ حجم هذه السوق ما يزيد على ٣ بلايين ريال (٨٠٠ مليون دولار). وحجم إنفاق الأسر السعودية على الأثاث يسجل ارتفاعاً مستمراً، حيث يزيد على ٣٪ من الدخل السنوي للأسرة وفقاً لدراسات السوق، وتغير الأسر السعودية المتوسطة الدخل أثاثها

كل ٥ إلى ٧ سنوات، فيما تنخفض المدة للأسر الأكثر دخلاً، والتي تغير أثاثها كل ٣ إلى ٥ سنوات.

ورغم أن عدد مصانع الأثاث السعودية يبلغ نحو ١٣٤ مصنعاً تنتج ما يزيد على ٣٥ ألف طن من الأثاث سنوياً إلا أنها لا تغطي إلا ما نسبته ٣٥٪ من حاجة السوق المحلية، والباقي يستورد من الخارج^(١).

وأشار تقرير آخر إلى أن واردات دول الخليج من الأثاث سنة ١٩٩٦م بلغت ٥, ٢ بليون دولار، وأظهرت تقديرات تجارية أن واردات دولة الإمارات من الأثاث وتوابعها بلغت عام ٩٥م ٥٩٣ مليون دولار، وبلغت قيمة واردات الكويت ٤٩٤ مليون دولار، وسلطنة عمان ١٢٩ مليون دولار، والبحرين ٩٥ مليون دولار، وقطر ٦٣ مليون دولار^(٢).

الملابس: حجم سوق الملابس الرجالية في السعودية يتجاوز أربعة بلايين ريال سنوياً (١, ٠٦ بليون دولار) منها بليون ريال (٢٧٦ مليون دولار) حجم سوق الشماع والغترة فقط^(٣).

العطور ومستحضرات التجميل: أظهرت دراسة اقتصادية أن إنفاق المستهلك الخليجي على العطور ومستحضرات التجميل، تعتبر من أعلى معدلات الاستهلاك في العالم. وقدرت حجم واردات مجلس

(١) الحياة: جريدة يومية، لندن، ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٠م.

(٢) الحياة: جريدة يومية، لندن، ٢٧ جمادى الأولى ١٤١٧هـ.

(٣) الحياة: جريدة يومية، لندن، ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٠م.

التعاون الخليجي منها بنحو ٨١٧ مليون دولار سنة ٩٥م. وأشارت الدراسة التي أعدها مصرف الإمارات الصناعي إلى أنّ دول الخليج استوردت سنة ٩٥م نحو ١٩٠ ألف طن من العطور ومواد التجميل إلى جانب إنتاجها المحلي البالغ ٦٥ ألف طن.

قيمة واردات السعودية منها ٢٥٠ مليون دولار، والإمارات ١٩٠ مليون دولار.

ولاحظت الدراسة تزايد استهلاك العطور ومستحضرات التجميل بصورة مطّردة مع ارتفاع مستويات المعيشة، واتساع القاعدة الاجتماعية للفئات ذات الدخل المتوسط في دول مجلس التعاون الخليجي^(١).

وذكرت مجلة اليمامة السعودية ضمن تحقيق لها عن (المرأة في السعودية واستهلاك أدوات التجميل) أنه خلال عام ١٩٩٥م استهلكت النساء في السعودية ٥٣٨ طناً من أحمر الشفاه، و٤٣ طناً طلاء الأظافر، و٤١ طناً من مزيلات هذا الطلاء!! و٢٣٢ طناً من مستحضر تجميل العيون، وصبغة الشعر ٤٤٥ طناً^(٢).

الذهب والألماس: تُعدّ السعودية ثالث أكبر سوق عالمية للذهب تقدر قيمتها ٣ بلايين دولار سنوياً، وقدّر مسؤول في شركة (دي بيرز)

(١) الحياة: جريدة يومية، لندن، ١٢/٦/١٤١٦هـ.

(٢) اليمامة: مجلة سعودية تصدر أسبوعياً، العدد ١٤٤٩ - ٢٠/١١/١٤١٧هـ، ص ٢٢.

أكبر شركة للألماس في العالم حجم سوقه - عدا بقية الشركات - في منطقة الخليج بأكثر من بليون دولار سنوياً. وقال إن الطلب على الألماس في منطقة الخليج يُعدُّ من الأعلى في العالم^(١).

السيّارات: تنفق السعودية ما يصل إلى ١٣ بليون دولار في سوق شراء السيّارات، وقطع الغيار سنوياً، ما يجعلها أكبر سوق للسيّارات في الشرق الأوسط، حيث تستورد السعودية أكثر من ٢٧٥ ألف سيارة سنوياً تقدر قيمتها بأكثر من ٩, ١٠ بليون دولار إضافة إلى سوق قطع الغيار والإكسسوارات التي يقدر حجمها بنحو ٢, ٢ بليون دولار^(٢).

المشروبات الغازية: ارتفع حجم السوق السعودية في قطاع المشروبات الغازية إلى أكثر من بليون دولار سنوياً^(٣).

هذه نماذج وأمثلة بسيطة عن توجهات وارتفاع وتيرة الاستهلاك في مجتمعاتنا.

بين الإنتاج والاستهلاك:

في الدول الصناعية يكون الاستهلاك عملية متكاملة مع الإنتاج، وموازية له، فالفكرة هناك أنه لكي تنتج وتصنع أشياء جديدة لا بد من وجود قدرة عالية على الاستهلاك، بل إن الإنتاج عندهم يفيض على

(١) الحياة: جريدة يومية، لندن، ٧ شوال ١٤١٧هـ.

(٢) الحياة: جريدة يومية، لندن، ١٩ نوفمبر ٢٠٠٠م.

(٣) الحياة: جريدة يومية، لندن، ١ مايو ١٩٩٨م.

الحاجة الاستهلاكية لديهم في غالب مجالات التصنيع، لذا يتجهون إلى التصدير، ويبحثون عن أسواق الاستهلاك خارج بلادهم.

لكن مشكلة بلداننا أن الاستهلاك عملية قائمة بذاتها لا ترتبط بالإنتاج، ولا تتجه لتشجيع الإنتاج الوطني.

إن الفرد في مجتمعاتنا يلتهث خلف الاستهلاك لكنه ضعيف الإنتاجية والفاعلية، وقبل فترة أشارت دراسة أعدتها لجنة علمية أميركية تحت عنوان (في مواجهة المستقبلات) إلى أن الإنتاج الخام للفرد في الدول الصناعية عام ١٩٧٥م كان ٣٠٠٠ دولار ويصل في عام ٢٠٠٠م إلى ٨٠٠٠ دولار، بينما لم يتعد إنتاج الفرد في الدول النامية عام ١٩٧٥م ٢٩٠ دولار، ويصل عام ٢٠٠٠م إلى ٨٦٠ دولار، أي إن النسبة بين إنتاجية الفرد هناك وإنتاجية الفرد هنا من واحد إلى عشرة تقريباً!!

إنهم يستهلكون ما ينتجون فيتقوى اقتصادهم، وتنشط دورته، بينما نبالغ في استهلاك ما ينتجه الآخرون فتتبدد ثرواتنا وإمكاناتنا.

ولو كانت لدينا خطط وأطروحات لاستقطاب جزء من السيولة التي في أيدي المواطنين باتجاه مشاريع الإنتاج والعمل والتصنيع، لكننا في مستوى أفضل.

كما أننا بحاجة لتشجيع الإنتاج الوطني، بدل التهافت على الاستيراد واقتناء السلع الأجنبية.

التخطيط في الإنفاق؛

في المجتمعات التي يتوفر لأبنائها وعي اقتصادي حياتي، يعتمد كل فرد له ميزانية سنوية، وفق مستوى دخله، وحسب أولويات احتياجاته، فيحدد نسبة من دخله لكل مجال من مجالات حياته، فلتعليم كذا في المئة، وللصحة كذا، وللغذاء كذا وهكذا.

وعادة ما تخصص نسبة للدخار لمواجهة الحالات الطارئة، التي انطلقت منها شركات التأمين في المجالات المختلفة.

وعلى أساس هذا التخطيط يكون هناك توازن بين الدخل والإنفاق، كما تعطى الأولوية للحاجات الأساسية، وتأتي الكماليات في مرحلة تالية.

أما في مجتمعاتنا فنادرًا ما تجد مثل هذا التوجه، لذا يعاني الكثيرون وخاصة من أصحاب الدخل المحدود، أوضاعاً اقتصادية صعبة، حيث تبخر مدخلاتهم بسرعة، ولا يتمكنون من ترتيب أوضاعهم المعيشية، لافتقادهم التخطيط.

كتب أحدهم رسالة لجريدة عكاظ هي أنموذج يحكي حالة الكثيرين ومما جاء فيها: أنا شاب متزوج ولدي طفلة صغيرة، وأعمل في وظيفة محترمة، وأتقاضى راتباً يبلغ تسعة آلاف ريال شهرياً، وما أن يأتي آخر الشهر لا أجد ريالاً في جيبى، ومشكلتي تكمن في عجزى عن ادخار أي مبلغ ينفعني في الأيام الصعبة، ويساعدني على تأمين

مستقبل جيد لأولادي، عجزت عن شراء متر أرض واحد أو بناء منزل لي ولأولادي..^(١).

إنّ إنفاق الإنسان يجب أن يكون في حدود دخله، وصرفه يجب أن يكون ضمن ميزانية يعتمدها بدراسة وتفكير، لا أن يصبح دخله في مهب رياح الدعاية والإعلان، وتحت تأثير الرغبات الاستهلاكية الارتجالية.

عادات الإسراف والتبذير:

لقد تحول الإسراف والتبذير والمبالغة في الاستهلاك إلى عادات وأعراف حاكمة في مجتمعاتنا.

فأطفالنا يتربون من صغرهم على حب الاستهلاك، فتعطى لهم النقود دون حاجة، ويتعلمون على الاستمتاع بالشراء، لمجرد الشراء وإن كان لشيء لا يفيدهم، بل قد يكون ضاراً لهم. وترى في حالات كثيرة حينما يبكي الطفل ويريد أهله تهدئته يقال له خذ ريالاً أو خمسة أو عشرة واذهب إلى البقالة!! في مقابل ذلك تشجّع بعض العوائل في المجتمعات المتقدمة أبناءها منذ صغرهم على فتح حسابات للدخار، وتعلّمهم كيف يفكرون فيما يشترون قبل أن يشتروا.

وعلى المستوى العام فالتسوّق والشراء لم يعد تلبية لحاجة في

(١) عكاظ: جريدة يومية سعودية، ٢٤ مارس ١٩٩٧م.

حياة العائلة، بل أصبح برنامجاً للترفيه والتمتع، فيذهبون إلى السوق ليس لشراء حاجات معينة يريدونها، وإنما يتجولون في المحلات التجارية لتخلق عندهم الحاجة ورغبة الشراء، فلاستهلاك بحد ذاته مصدر لذة وارتياح.

كما تعود الناس على أن يشتروا الأشياء بالكميات، وحتى فيما يسرع إليه التلف، فيحملون أنفسهم نفقات التخزين والتبريد، ويخسرون قسماً كبيراً منها بالخراب والتلف، ذلك أن الواحد منّا يستحي أن يشتري بالكيلو أو الحبة الواحدة!!

بينما ترى في أميركا وأوروبا أنّ العائلة تشتري بضع حبات من البرتقال أو التفاح وجزءاً من حبة البطيخ وما أشبه.

وعاداتنا في الأكل والشرب قائمة على الإسراف والتبذير غالباً، وخاصة في الولائم والمناسبات العامة، حيث يقدم لشخصين أو ثلاثة صحن طعام ممتلئ يكفي لعشرة أشخاص، فيتناولون منه مقداراً يسيراً، ويرمى الباقي!! وهي حالة مألوفة معروفة.

وتحكي أرقام وزن النفايات المنزلية صورة عن مستوى الإسراف والتبذير، فقبل سنوات أشارت دراسة نفذها المعهد العربي لإنماء المدن بعد مسح شامل لحوالي ١١١ مدينة عام ١٩٨٦م، إلى أنّ النفايات المنزلية في ٢٩ مدينة في دول مجلس التعاون الخليجي تشكل ٧٩٪ من المجموع العام للنفايات المختلفة، وهذه النسبة تُعدّ

من أعلى النسب في كل دول العالم. ويلقي الفرد في مدينة الرياض نحو ٢٠٠٠ غرام من النفايات العامة يومياً!!^(١)

في بعض الدول الأوروبية تجمع القمامة والنفايات المنزلية يومين في الأسبوع، أمّا عندنا فهي تجمع يومياً، بل يلاحظ أنها تزيد على استيعاب البراميل المعدة لها.

كما أصبح الاستهلاك ميداناً للتفاخر والتباهي، فاختيار نوع السيارة أو أثاث المنزل، أو طريقة احتفال الزواج في هذه الصالة أو تلك، وبهذا الشكل أو غيره، لا يتم نتيجة اختيار موضوعي وإنما لتسجيل نقاط في مجال التفاخر والتباهي، ومحاكاة لذلك الشخص أو تلك الجهة.

إننا ندفع ثمناً باهضاً لهذه العادات السيئة، فأولاً: غضب الرب سبحانه وتعالى الذي نهانا عن الإسراف والتبذير، يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٢). ويقول تعالى ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾^(٣).

وثانياً: ترهقنا بأعبائها، حيث يجد الواحد نفسه منساقاً لممارسات هذه العادات والأعراف، مع عدم قدرته وضعف إمكانياته، فيتحمل الديون والقروض، ويتعرض للإحراج والمشقة، كما تتعرقل بسببها

(١) قافلة الزيت: مجلة شهرية - شركة أرامكو السعودية، ص ٤٠، ربيع الأول ١٤١٦هـ.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣١.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٧.

متطلبات وحاجات الحياة، وتنتج المشاكل العائلية والاجتماعية.
 فالزواج أصبح يتطلب كلفة كبيرة، ومراسيم العزاء عند الوفاة
 تحتاج مبالغ طائلة، وتقديم الهدايا عند الولادة من قبل المرأة
 لصديقاتها يستلزم ميزانية باهظة...

دعوة إلى الترشيذ:

لم تكن مجتمعاتنا تعيش مثل هذه الحالة الاستهلاكية في الماضي،
 وحتى لدى الطبقات الثرية والتمكنة، لكن توفر السيولة في الأيدي،
 والتأثر بوسائل الإعلام والدعاية، هو الذي شجع على عادات الترف
 والإسراف. لكن الوضع الاقتصادي الآن أصبح ضاغطاً على الأكثرية
 الساحقة، فالحاجة ماسة لتغيير أنماط الاستهلاك السائدة، وترشيدها
 بما يتناسب مع ارتفاع مستوى المعيشة، ومحدودية المداخل. ومع
 أن الناس جميعاً يتبرمون من هذه العادات الضاغطة المرهقة، إلا أنهم
 يخضعون لها ويتقيدون بها، خوفاً من الانتقاد والاتهام بالبخل.

والمطلوب تجاوز هذا الإحساس المضخم، وأن تبدأ مبادرات
 الترشيذ على مستوى الإنفاق الخاص، وفي المناسبات العامة، وإذا
 ما تعددت هذه المبادرات، فسوف تخلق عادات جديدة راشدة يقبل
 عليها الكثيرون. ولنضع نصب أعيننا الحديث الوارد عن الإمام موسى
 الكاظم (عليه السلام) عن الإسراف قال (عليه السلام): «هو يرفع صاحبه في الناس ويضعه

عند الله»^(١).

ونشير هنا إلى أهمية الإستجابة للدعوة التي يطرحها علماء الإسلام في مقاطعة البضائع والسلع الأميركية، فإنها بالإضافة إلى ما تعنيه من تضامن مع إخواننا الفلسطينيين المقاومين للاحتلال الإسرائيلي، ومن إعلان الغضب والسخط على الموقف الأميركي الجائر المنحاز للصهاينة، بالإضافة إلى ذلك فهي نوع من التوجه لترشيد الاستهلاك، حيث يراجع الإنسان عقله فيما يريد أن يشتريه، ويأخذ بعين الاعتبار جهة الإنتاج، وموقفه تجاهها.

(١) الريشهري: محمدي، ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٤٤٥.



الفصل الثاني

مواجهة التحديات

- المشاكل بين الآهات والمعالجات
- مصاعب الحياة بين الانفعال والاستيعاب
- العوائق بين الإحباط والفاعلية
- قلق الاختبارات



المشاكل بين الآهات والمعالجات

يودّ الإنسان أن يعيش حياته دون مشاكل أو صعوبات، وأن لا تعترض طريقه عوائق وعقبات، بيد أن القسم الأكبر من المشاكل التي يواجهها إنما تنبع من ذاته، وتحصل بسبب نواقصه وأخطائه، وبإمكانه تجاوزها بمزيد من المعرفة والاستقامة والاجتهاد.

وهذا ما تشير إليه آيات عديدة في القرآن الكريم، تحمّل الإنسان فرداً ومجتمعاً، مسؤولية ما يقع عليه من نكسات وآلام، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١) أخرج ابن المنذر وجماعة عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ قال: «والذي نفسي بيده ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا نكبة حجر، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله

(١) سورة الشورى: الآية ٣٠.

عز وجل عنه أكثر»^(١). والذنب يشمل كل مخالفة لأحكام الشريعة أو قوانين الطبيعة.

وهناك قسم من المشاكل تقتضيها حكمة الحياة، فإن الإنسان ينطوي على مخزون من القدرات والطاقات، ويحتاج إلى دوافع وحوافز تستثير إمكاناته، وتستنهض قواه، وغالباً ما تؤدي المشاكل والتحديات هذا الدور في حياة الإنسان، فالحاجة أم الاختراع، والمشكلة تدفع إلى التفكير والحركة، وما الاختراعات العلمية، والإنجازات الصناعية، في مختلف المجالات، إلا استجابة من الإنسان للتحديات التي شعر بمواجهتها، وعاش تحت وطأة ضغوطها.

لقد هيا الله تعالى للإنسان في هذه الحياة كل أسباب السعادة والكمال، حتى لا يعاني حاجة أو نقصاً، لكن ذلك مشروط بحركة الإنسان وسعيه، وبالسعي والحركة تتفجر طاقاته، وتنصلق شخصيته، وتتسع مداركه وآفاقه، إلى جانب توفير متطلباته وتحقيق طموحاته.

وبالتالي فإن لكل مشكلة حلاً، ولكل داء دواءً، وما على الإنسان إلا الاجتهاد في التفكير، والجد في الحركة والعمل، ليصل إلى ما يريد، فبعض المشكلات تحتاج معالجاتها إلى مستوى أعلى من النشاط، وبعض التحديات تستوجب بذل درجة أكبر من الجهد.

وكمثال على ذلك فإن أمراضاً كانت تفتك بالإنسان وتودي

(١) الألوسي: السيد محمود، تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٤١.

بحياته، لكن كفاح العلماء المتواصل مكّن الإنسانية من التغلب على خطرها، عبر التلقيح وأدوية العلاج كالجدري والحصبة والملاريا وأمثالها. وهكذا في مجال مقاومة الحر والبرد حيث صنع الإنسان وسائل التكييف والتدفئة، وفي مجال المواصلات والاتصالات وغيرها. فإن كل الاختراعات والاكتشافات، كانت من وحي الحاجة ومواجهة المشكلة.

ولتأكيد هذه الحقيقة ورد عن رسول الله ﷺ قوله فيما رواه أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه)، «إن الله تعالى لم ينزل داءً إلا أنزل له دواءً علمه من علمه، وجهله من جهله إلا السأم وهو الموت»^(١) وقال الإمام علي (رضي الله عنه): «لكل علة دواء»^(٢).

هكذا يكون وجود المشاكل طريقاً لتفعيل قدرات الإنسان، وتنمية طاقاته. وحتى الأنبياء والأولياء المعصومين فإن المشاكل التي تواجههم والآلام التي تحلّ بهم، هي التي تبرز كفاءتهم، وتظهر مقامهم المتميز، إضافة إلى ما ينالون بتحملها من الأجر والثواب عند الله سبحانه.

المشكلة ليست قدراً:

على ضوء هذا الفهم لطبيعة مشاكل الحياة، فإن على الإنسان أن

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٢٨٠٧٩.

(٢) الآمدي التميمي: عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم.

لا يستسلم ولا ينهزم أمام أية مشكلة أو عقبة، بل عليه أن يعود لذاته، وأن يفتش عن الخلل والخطأ الذي حصل منه، وأنتج المشكل، هل هو نقص في المعرفة والوعي؟ أم هو تقصير في الحركة والسعي؟ أم هو انحراف في الممارسة والسلوك؟ وعبر إصلاح ذاته، وتغيير نفسه إلى الأفضل، سيتمكن من تجاوز المشكل والتغلب عليه. كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١) وكم من فرد كان يعيش وضعاً متردياً، ثم تجاوزه إلى حالة متقدمة، بعد أن غيّر ذاته، وأصلح الخلل في شخصيته؟ وكم من شعب كان يعاني التخلف والاضطهاد، ثم نال حريته وحقق تقدمه، حينما أنجز مهمة الثورة والكفاح، وقاوم عوامل الضعف والخنوع؟

وإذا كان المشكل قد أنتجته ظروف وأوضاع خارجية، فإن الإنسان إذا ما استثار فكره، واستنهض إرادته، واستجمع قواه، فسيجد له من أمره فرجاً ومخرجاً. ذلك أن المشكل ليس قدراً مفروضاً، ولا حتمية أبدية، بل هو كأي وضع أو حدث قابل للتغيير والزوال، ضمن إطار سنن الكون والحياة.

إذاً فلا داعي للانهيار أمام المشكل، ولا الاستسلام والانهزام أمام التحديات، بل يجب شحذ الهمة، وحشد الجهد والطاقة، بالتوكل على الله تعالى والثقة برحمته.

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

وبهذه الحقيقة نطقت آيات الذكر الحكيم لتشجيع في نفوس البشر الأمل والتفاؤل، وتعزز في قلوبهم الثقة والإرادة، وتدفعهم للبحث عن وسائل التغيير والتطوير. يقول تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(١) ويقول تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^(٢) وما أروع هذه الآية الكريمة التي تعبّر عن مفهوم عظيم، وتنبئ عن حقيقة هامة: إن كل عسر ييسر، وإن كل مشكل يكون باباً وطريقاً إلى مكاسب وإنجازات، إذا ما استجاب الإنسان للتحدي، وتعاطى مع المشكل بإيجابية ووعي.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٣) والتقوى هنا بمفهومها الواسع الشامل التي تعني مراعاة القوانين والسنن الطبيعية والشرعية، والمتقي بهذا المعنى لا يجد نفسه أمام طريق مسدود، بل يبتكر الحلول، ويجدد المحاولات، للخروج من أي مشكل أو مأزق. كما أن مفاهيم الإسلام التي تحرّم اليأس والقنوط إنما تريد أن تخلق في نفس الإنسان روح الأمل، وقوة الإرادة، حتى لا يستسلم ولا ينهزم أمام المشكلات.

فالقنوط تكرس للخطأ والسوء، ومن يتصف به يضل عن طريق التقدم والصالح ﴿وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^(٤) وإذا ما

(١) سورة الشرح: الآيتان ٥-٦.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٧.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٢.

(٤) سورة الحجر: الآية ٥٦.

سيطر الاستسلام واليأس على نفس الإنسان، فإنه يفوت عليه فرص التغيير والخلاص، كما يقول الإمام علي (عليه السلام): «في القنوط التفريط»^(١).

التأوه والتألم:

ألف كثير من الناس كأفراد ومجتمعات أن يجروا الآهات، ويتباروا في إظهار التألم من وقع المشكل وتأثيراته، فأدباؤهم ينظمون أشعار الحزن والأسى، وكتابهم يتفننون في توصيف النكبات والآلام، ومجالسهم تبدأ ولا تنتهي في التباكي على المصائب، وإبراز التبرم من مشاكل الواقع، ويبقون يراوحو مكانهم، ويستمررون في دوامة التأوه والتألم.

ولكن هل البكاء مجدٍ في تغيير الواقع السيئ؟ وهل تكرار الحسرات وجرّ الآهات يعالج المشاكل ويحلها؟ أم أنه مجرد تنفيس لإراحة النفس بشكل زائف، ولتصريف الحماس والانفعال بطريقة خطأ؟

إن البكاء سلاح عاجز، والتظلم وسيلة الضعيف، وهي طريقة متخلفة في التعامل مع تحديات الحياة. والموقف الصحيح يجب أن يبدأ من التفكير في طرق الحل، واستعراض وسائل المعالجة، ومن ثم اتخاذ قرار المبادرة للتصدي لمواجهة المشكل.

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٢١١.

فمثلاً يتحدث بعض المتدينين في جلساتهم ومجالسهم عن انتشار المفسد والانحرافات، وخاصة في أوساط الشباب والفتيات، ويزيدون على بعضهم البعض في ذكر القصص والأحداث السيئة في هذا المجال، وينعون حالة التدين، وانهيار الأخلاق في المجتمع، ويختمون جلستهم بالتأوه والتألم كما بدأوها، دون أن يتجاوزوا توصيف المشكلة إلى تلمس طرق الحلول والمعالجات، ودون أن يطالبوا أنفسهم بمبادرة ما، لصالح نشر القيم الدينية، وبث الوعي السليم، أو استيعاب أبناء المجتمع في برامج ومشاريع نافعة مفيدة.

وفي مجال آخر تجد من يتحدث عن مشاكل التعليم، وخاصة مع انتهاء السنة الدراسية، ووجود عدد كبير من المتخرجين في المرحلة الثانوية، والباحثين عن فرص الالتحاق بالجامعات وخاصة في بعض التخصصات الهامة كالطب، فهناك كلام في الجرائد والمجالس عن هذه المشكلة والمعاناة سنوياً، لكن ما هو دور الأهالي ورجالات المجتمع في المساعدة على حل هذه المشكلة؟

وكيف يمكن خدمة أبنائنا وبناتنا وخاصة المتفوقين والمتفوقات من ذوي المعدلات العالية في تحقيق طموحهم الدراسي؟ لماذا لا يستفاد من التوجه للتعليم الأهلي الجامعي؟ ولماذا لا نساعد أبنائنا وبناتنا على الابتعاث ونهيئ لهم الأجواء الصالحة المساعدة؟

إن أي مجتمع لا يخلو من المشاكل والنواقص حتى في أكثر

البلدان تطوراً وتقدماً، لكن المجتمع الواعي هو الذي يفكر في حل مشاكله، ويسعى إلى معالجة قضاياها، ولا يكتفي بتكرار الحسرات والآهات.

قصة معبرة:

ينقل أن أحد الأثرياء الواعين كان يأخذ على أهل قريته انعدام المبادرة لديهم في حلّ مشكلات حياتهم، وأراد أن يقدم لهم أنموذجاً عملياً، فقام مبكراً ذات يوم وحمل حجراً كبيراً ووضعته في الطريق الرئيسي الذي يسلكه أهل القرية إلى مزارعهم، ووضع تحت الحجر مبلغاً كبيراً من المال، ثم اختبأ خلف شجرة يراقب..

فمر فلاح يجرّ وراءه بقرة سمينه، فوجد الحجر في الطريق فأخذ يسخط ويلوم، وبالكاد مر ببقرته، تاركاً الحجر مكانه..

ثم جاء رجل آخر يحمل حزمة من الحطب على كتفه، ويسير في الطريق، فاصطدم بالحجر دون أن يراه، وتعثّر ووقع الحطب، وقام الرجل ساخطاً يسبّ ويتألم، ثم جمع حطبه وحمله وسار في طريقه متبرماً والحجر لا يزال مكانه. وهكذا مرّ العديد من الرجال، ولم يزد أحد منهم على إبداء السخط والاستياء من وجود هذا الحجر في وسط الطريق، وسب وشتم من وضعه، وربما تحادث بعضهم مع بعض لتبادل الآهات والتعبير عن السخط والانزعاج.

وفي آخر النهار مر شاب تبدو على وجهه علامات التعب الشديد

من كثرة العمل في الحقل طوال النهار، لكنه لما رأى الحجر منتصباً وسط الطريق، شمر عن ساعديه، وحاول بكل جهده وقوته أن يزيحه، وبعد جهد وعناء تمكن من ذلك وأبعد الحجر، فوجد تحته مبلغاً كبيراً من المال، فظن أنه سقط من أحد من أهالي القرية، فرفع صوته منادياً على السائرين في الطريق إن كان أحد منهم قد فقد شيئاً من ماله.. وهنا ظهر ذلك الرجل الواعي الذي وضع الحجر وأخفى المال تحته، ليعانق الشاب ويهديه المبلغ ويشكره على مبادرته الطيبة وروحته الإيجابية، ثم قدمه لأهالي القرية كأنموذج لما ينبغي أن يكونوا عليه من التصدي لحل المشكل وإزالة العقبات، وعدم الاكتفاء بإظهار التبرم والسخط والتألم.

المبادرة للعمل:

قبل ستين سنة تقريباً نشرت بعض المجلات في مصر ومناطق أخرى مقالات تتهجم على أتباع مذهب أهل البيت (عليه السلام)، وتعدّهم خارجين عن دائرة الإسلام، وتصفهم بالجهل والخضوع للخرافات والأساطير، وأنهم لا يمتلكون تراثاً ولا شخصيات تستحق الاحترام، وعلى أثر هذه المقالات سادت حالة من الاستياء والسخط في أوساط الحوزة العلمية في النجف الأشرف - العراق، وهي المركز العلمي والمذهبي للشريعة، وعطلت الدروس احتجاجاً على هذه الإساءات، وتحديث الخطباء في المجالس منددين بذلك، لكن ثلاثة من العلماء

ما كانوا يرون في مظاهر التنديد وإعلان السخط والاستياء أمراً كافياً في مواجهة هذا العدوان.

بل قرر كل واحد منهم أن ينجز مشروعاً علمياً معرفياً يخدم به المذهب، ويقدم الطائفة للآخرين من خلال تاريخها وثقافتها ورجالاتها.

أحدهم كان السيد محسن الأمين العاملي كتب موسوعة: (أعيان الشيعة)، والثاني هو السيد حسن الصدر كتب بحثاً مهماً طبع في مجلد كبير تحت عنوان: (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام)، والثالث هو الشيخ آغا بزرك الطهراني ألف موسوعة ضخمة بعنوان: (الذريعة إلى تصانيف الشيعة).

هذه الموسوعات الثلاث أصبحت مراجع ومصادر أساسية ونالت مكانة مرموقة عند الباحثين وكانت أفضل رد وجواب على المتجاهلين والمغرضين. وهكذا يجب أن يكون التعاطي مع المشاكل بالمبادرة إلى العمل وتحقيق الإنجازات، وليس الاكتفاء بالتذمر والتشكي واجترار الغبن.

طريق المعالجة :

التعامل الإيجابي الصحيح مع أي مشكل ينبغي أن يكون عبر الخطوات التالية:

١. الدراسة الموضوعية:

لمعرفة حقيقة المشكل وحجمه، وأسبابه وخلفياته، ومدى الآثار والانعكاسات التي ينتجها، وذلك بعيداً عن التهويل والتضخيم، والاستهانة والتبسيط، بل دراسة الأمور بواقعية وموضوعية. فقد تختلط الأشياء على الإنسان، ويتوهم ما لا واقع له، وقد يعتمد الإنسان في تصوراتهِ على الظنون والتخيلات.

٢. التفكير في الحلول:

انطلاقاً من أن لكل مشكلة حلاً، ومن الإيمان بطاقات الإنسان الخلاقة، وقدراته العقلية الثاقبة، فإنه إذا ما وجه عقله نحو نقطة معينة، واستعرض مختلف الخيارات والاحتمالات، واجتهد في إبداع الحلول، وابتكار الأساليب والوسائل، فإنه يهتدي إلى طريق الحل والعلاج، ولو قرأنا تجارب المخترعين والمكتشفين والعظماء والمصلحين، لرأينا كيف تمكنوا من تجاوز العوائق والعقبات، وتوصلوا إلى تحقيق الطموحات والإنجازات، بعد جهد فكري عميق، وعمل ذهني شاق. يقول الإمام علي عليه السلام: «من أسهر عين فكرته بلغ كنه همته»^(١) ويقول عليه السلام: «بالفكر تنجلي غياهب الأمور»^(٢).

إن ما يعاني منه الكثيرون تجاه المشاكل والصعوبات، هو وقوعهم

(١) الأمدى التميمي: عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) المصدر السابق.

تحت تأثير العواطف والانفعالات النفسية، على حساب أعمال العقل، وتركيز الفكر.

٣. تحمّل المسؤولية:

فالبعض ينتظرون أن تحلّ مشاكلهم عن طريق الغيب، ويتوقعون المعجزة من المجهول، ويطربون التغيير والإصلاح عن طريق الدعاء، أو حدوث تطورات ما في هذه الحياة، وفي بعض الأحيان يعلقون الآمال على هذه الجهة أو تلك لتحقيق ما يرغبون.

وهذه كلها تصورات مخالفة لمنطق الحياة، وللقوانين والسنن، فإن الله تعالى لا يريد تربية عباده على العجز والكسل، ولذلك يحملهم المسؤولية عن أوضاعهم، ويحثهم عبر رسالاته وأنبيائه على العمل والجد والاجتهاد، فواقع الإنسان نتاج عمله وكسبه ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(١)، ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾^(٢).

فلا بد من تحمّل المسؤولية تجاه أي مشكل، والاستعداد للبذل والتضحية من أجل تجاوزه، وأن لا يعيش الإنسان على الآمال والتوقعات، فمشاكلنا تعيننا، ونحن المطالبون بالتصدي لمعالجتها، وعلينا أن نبذل الجهد، ونعطي من أنفسنا لتحقيق ذلك.

(١) سورة النجم: الآية ٣٩.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٣٢.

٤ . التشاور والتعاون:

فتبادل الرأي واستعراض وجهات النظر بين المهتمين بالشأن الاجتماعي، يساعدهم على الوصول إلى أفضل الآراء وأصوبها، كما أن تظافر الجهود، واجتماع القوى والارادات يمكن من تذليل الصعاب، وإنجاز المهام الكبيرة.

وبدل أن يتبارى الناس في إعلان الآهات والحسرات، عليهم أن يتنافسوا في طرح المعالجات، ويتعاونوا في تقديم المشاريع العملية لتجاوز ما يواجهونه من المشكلات.

يقول الإمام الحسن عليه السلام: «ما تشاور قوم إلا هدوا إلى رشدهم»^(١)، ويقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(٢).

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٠٥.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢.



مهاعب الحياة بين الانفعال والاستيعاب

من طبيعة هذه الحياة الدنيا أنها زاخرة بالمشاكل والمصاعب، بمقدار ما هي مليئة بالملذات والشهوات، وفرص المكاسب والإنجازات، وأرادها الله تعالى كذلك لتكون قاعة ابتلاء وامتحان للإنسان، وفي الاختبار لا بد من توقع الأسئلة الصعبة، ولإعطاء رخصة قيادة السيارة يمتحن بالسير في طرق ذات منعطفات ومتعرجات.

ولمشاكل الحياة وظيفة أخرى هي صقل إرادة الإنسان، واستثارة قدراته وطاقاته، فالتحديات دافع التقدم والتكامل.

لذلك يؤكد القرآن الكريم على حتمية العناء والصعوبة في هذه الحياة يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(١). والكبد هي المعاناة والتعب الشديد. وفي آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ

(١) سورة البلد: الآية ٤.

إِلَى رَبِّكَ كَذْحًا فَمَلَأْ بِهِ^(١). والكدح هو العمل والسعي بمشقة.

الناس الذين يفكرون بأنهم يجب أن يرتاحوا في حياتهم، ولا تزعجهم المشاكل والمصاعب، هؤلاء واهمون لا يعرفون طبيعة الحياة.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «الراحة لم تخلق في الدنيا ولا لأهل الدنيا، إنما خلقت الراحة في الجنة ولأهل الجنة، والتعب والنصب خلقا في الدنيا ولأهل الدنيا»^(٢). وفي حديث للإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال لأصحابه: «لا تتمنوا المستحيل! قالوا: ومن يتمنى المستحيل؟! فقال: ألستم تمنون الراحة في الدنيا؟ قالوا: بلى. فقال: الراحة للمؤمن في الدنيا مستحيلة»^(٣).

والإنسان في أي موقع كان، وضمن أي حالة في هذه الحياة، معرض للمشاكل والابتلاء، فقد يتصور الفقير أن الأغنياء يعيشون راحة تامة، أو يتصور المحكومون أن الحاكمين لا يواجهون ما يزعجهم ويقلقهم، أو أن أهل تلك البلاد لا شيء ينغص عليهم صفو راحتهم، لكن هذه التصورات جميعها بعيدة عن الواقع، فلا أحد في هذه الحياة حاكماً أو محكوماً، غنياً أو فقيراً، عالماً أو جاهلاً، من مواطني العالم الثالث أو الأول، لا أحد يعيش راحة تامة، نعم قد تتفاوت المشاكل،

(١) سورة الانشقاق: الآية ٦.

(٢) المجلسي: محمد باقر، ج ٧٠، ص ٩٢.

(٣) الريشهري: محمدي ج ٤، ص ٢٠٤.

ويختلف مستوى المعاناة، ومدى توفر إمكانيات المواجهة والعلاج. فقد تأتي المشكلة من خلال البيئة الطبيعية المحيطة بالإنسان، وقد تنبع من داخل جسمه أو حالته النفسية، وقد تنبثق من الظروف الاجتماعية التي ينتمي إليها.

إن الراحة الكاملة، والسعادة التامة، لا تتوفر إلا في الجنة حسبما يخبرنا الله تعالى عنها، هناك حيث لا أمراض، ولا نزاعات ولا منغصات ولا نواقص ولا شيء يسبب ذرة من العناء أو الانزعاج، يقول تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾^(١).

وإذا كان خيار تغيير طبيعة الحياة ليس متاحاً للإنسان، فهي كما يقول الشاعر العربي:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقداء والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار
إلا أن طريقة تعامل الإنسان مع هذه الطبيعة يفتح أمامه أكثر من خيار، ويمكننا أن نلاحظ في تعاظم الناس مع مشاكل الحياة، أن هناك نمطين مختلفين: الأول حالة التشنج والانفعال. والآخر منهجية الاستيعاب.

(١) سورة الحجر: الآيات ٤٥ - ٤٨.

التشنج والانفعال :

التشنج لغة من الشَنَج وهو تَقَبُّض الجلد والأصابع وغيرهما، وفي الحديث: «إذا شَخَصَ البصر وشَنِجَتِ الأصابع، أي انقبضت وتقلصت»^(١) بحيث يصعب بسطها وتحريكها.

واللغويون يعبرون بذلك عن حالة مرضية، يطلق عليها الأطباء: تشنجا عضليا ويعرفونها بأنها حالة مفاجئة لا إرادية تصيب العضل فتمنعه من أداء وظيفته مع ألم شديد.

أما التشنج كحالة نفسية فيعرّفه علماء النفس: بأنه حالة يفقد فيها الإنسان الإدراك الواعي ويصاحبها تقلصات في العضلات، وهي وسيلة هروبية حينما تعجز الذات عن مواجهة ضغط من الضغوط أو موقف من المواقف بطريقة واعية سليمة.

ومن التعريفات السابقة يمكننا التعبير عن التشنج كظاهرة أخلاقية، بأنه الانفعال الزائد عن الحد تجاه حدث سيئ أو شخص مسيء. يدفع إلى مواقف أو تصرفات سريعة دون تفكير موضوعي.

هذا الانفعال المتطرف يحدث حالة من الانقباض في إرادة الإنسان وتفكيره، فتعوقه عن الحركة والسعي لتجاوز المشكل، كما تسبب له الكثير من التألم والتألم في مشاعره وأحاسيسه، تماماً كما هي آثار التشنج العضلي على مستوى الجسم.

(١) ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب.

مظاهر وأعراض:

لحالة التشنج مظاهر وأعراض في شخصية الإنسان يمكن أن نرصد منها ما يلي:

١. السلبية والتشاؤم:

فالحياة فيها أحداث جيدة وأخرى سيئة، فيها الحلو والمر، ويحصل فيها ما يبعث على الأمل والتفاؤل، كما يحدث ما يوجب التشاؤم، فلا بد من الاعتدال والتوازن، والنظر إلى الأمور بموضوعية. لكن الشخصية المتشنجة وبسبب ما قد يمر بها من مشاكل ونكسات تميل إلى السلبية والتشاؤم غالباً، وتقرأ الأحداث بهذه النفسية، فتكسر لديها حالة اليأس والقنوط، وتسيطر عليها حالة الإحباط، وذلك يعوق الانطلاق والحركة والسعي.

إن التعاليم الدينية تربي في الإنسان روح الأمل والتفاؤل، وتنهيه عن النزوع نحو اليأس والتشاؤم مهما عصفت به المشاكل والأزمات، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١). ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(٢).

وفي واقعة الخندق يقدم الرسول ﷺ مثلاً رائعاً في التطلع إلى

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٢) سورة الشرح: الآيتان ٥-٦.

الخير، وتجاوز ضغط الأزمات والمشاكل، حيث تذكر كتب السير والتاريخ: أنه لما حاصر المشركون وحلفاؤهم من اليهود المدينة المنورة، وكانوا أكثر من عشرة آلاف مقاتل، مدججين بالسلاح والعتاد، ولم يكن للمسلمين قوة مكافئة، لذلك قرروا حماية المدينة بحفر خندق حولها، حتى لا يستطيع الأعداء الهجوم عليها، فهم في موقع الدفاع، وأثناء حفر الخندق، اعترضتهم صخرة قوية شق عليهم كسرهما، فبادر الرسول وأخذ المعول وضرب على الصخرة ولشدة ضربته لمعت برقة منها، وتكرر ذلك ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يكبر فيكبر معه المسلمون، ثم قال لهم: «في الأولى فتح الله عليّ بها اليمن، وفي الثانية فتح الله عليّ بها الشام والمغرب، وفي الثالثة فتح الله عليّ بها المشرق».. فقال المنافقون: ألا تعجبون يحدثكم ويخبركم أنه يبصر في يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق، ولا تستطيعون أن تبرزوا^(١).

وفي بعض الأحيان تكون المبالغة في السلبية والتشاؤم نوعاً من التبرير لموقف التقاعس والكسل وعدم تحمل المسؤولية، بحجة عدم الفائدة والجدوى، وغلبة السوء والشر.

٢. الحماس للهدم دون البناء:

من أعراض ظاهرة التشنج والانفعال أن يبقى أصحابها في دائرة

(١) الحسني: علي فضل الله، سيرة الرسول وخلفائه، ج ٣، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، (بيروت: مؤسسة الوفاء)، ص ٣١٤.

السخط والاعتراض تجاه المشكل، دون أن يتجاوزوا ذلك إلى صنع الحلول، وتقديم العلاج. إنهم يفتشون عن المشاكل ليجتروا الكلام حولها، ولا يكلفون أنفسهم عناء التفكير في معالجتها، والسعي لمواجهتها. وقد ترى في بعض المجالس أشخاصاً يتبارون في استعراض المشاكل، ويزيدون على بعضهم في الحماس لها والغضب منها، لكنك إذا ما طرحت عليهم السؤال عن طريقة الحل وأسلوب العلاج، يواجهونك بالفتور والبرود، والتهرب من تحمل أي مسؤولية!!

لماذا نتكلم عن المشاكل والقضايا فقط، ولا نعتصر أذهاننا من أجل ابتكار الحلول، وابتداع طرق الخلاص؟

فإذا ما وقع حادث اعتداء على أحد من المجتمع، أو حصلت جريمة اخلاقية، أو أساء أحد إلى الدين أو المذهب، يصبح ذلك هو حديث المجالس، وتسود المجتمع أجواء الحماس والانفعال، وينشغل الناس بذلك لفترة، ثم تهدأ النفوس، وينتهي الحماس، في انتظار مشكلة أخرى.. وهكذا!!

لماذا لا نتحمس للفعل الإيجابي بدل الحماس كرد فعل فقط لمشكلة هنا وهناك؟

ولماذا لا تتحول ردود أفعالنا تجاه المشاكل إلى خطط عمل وبناء بدل الاكتفاء باجتراح المآسي والحسرات؟

يقول الدكتور محمد جابر الأنصاري: «إن بإمكانك أن تستشير الألوف من الناس لكي يخرجوا بمظاهرة يقطعون فيها عدة كيلومترات تحت حرارة الشمس، لكن هل تستطيع أن تقنع أحداً منهم بتنظيف عدة أمتار أمام باب بيته!!».

٣. البحث عن الأخطاء:

الشخصية الانفعالية المتشنجة غالباً ما تبحث عن النواقص، وتفتش عن الأخطاء ونقاط الضعف، في أي عمل أو مشروع، ولدى أي شخص أو جهة، ليس من أجل إسداء النصيحة، ولا لمساعدة في الترميم والإصلاح، وإنما لإثارة التشكيك، وللتشهير بالآخرين وإنجازاتهم.

إن الإيجابيات ونقاط القوة في أي نشاط، ومن قبل أي شخص لا تسترعي انتباههم، ولا تستقطب أنظارهم، لكن أقل خطأ وأبسط نقص، يجلب اهتمامهم، ويتضخم لديهم، وتقوم قيامتهم ولا تقعد اعتراضاً عليه!!

إن المنصف المخلص لبني نوعه أو مجتمعه هو من يشيد بالإيجابيات، ويقدم النقد البناء، والنصيحة الطيبة تجاه النواقص والسلبيات..

فمثلاً عندنا مؤسسات خيرية تعمل في المجتمع كالجمعيات الخيرية، ولجنة كافل اليتيم، ومهرجانات الزواج الجماعية، وصناديق الزواج الخيرية، والأندية الرياضية، والأنشطة الدينية والثقافية،

وكلها بجهود تطوعية اختيارية، يقدمها أفراد من أبناء المجتمع خدمة للمصلحة العامة، وابتغاءً لثواب الله ورضوانه، وهم بشر غير معصومين، قد يصدر منهم الخطأ والنقص، وقد تكون لديهم وجهة نظر في تصرف ما.

وما قد يقوم به البعض من موقف تجاه هذه المؤسسات الخيرية التطوعية، وما شاكلها من أنشطة في المجتمع، بحجة حدوث هذا الخطأ، أو وجود ذلك النقص، إنما هو مظهر وعرض لتلك النفسية الانفعالية المتشنجة.

٤. القسوة في ردّة الفعل:

قد يتعرض الإنسان لمواقف مثيرة من قبل الآخرين، بأن تصدر منهم إساءة تجاهه، أو يرتكبون خطأ أو ذنباً بشكل عام، وهنا كيف يكون رد الفعل على هذا المثير؟ إن حالة التشنج والانفعال تدفع الإنسان إلى ردة فعل قاسية عنيفة، تعود عليه بالمزيد من الانزعاج والتأزم النفسي، وتنسف الجسور بينه وبين الآخرين، وقد تجعل الطرف الآخر يتمادى في خطئه من منطلق التحدي ورد الفعل أيضاً..

بينما يكون للحلم والتسامح الكثير من النتائج الإيجابية الطبيعية، فذلك يمتص الإنسان حالات التشنج، ويحافظ على هدوئه واستقراره النفسي، ويكسب مودة الآخرين، والتأثير في نفوسهم وسلوكهم.

إننا بحاجة إلى أن يحتمل بعضنا بعضاً، وأن لا نكون قاسين عنيفين

على بعضنا، وإذا ما أخطأ واحد منا، فعلينا أن نساعد على تجاوز خطئه بالنصيحة واللفظ، لا أن ندفعه للارتكاس والتمادي أكثر..

وقد ورد في الحديث المروي عن رسول الله ﷺ إن من حقوق المسلم على أخيه المسلم: «ويقل عثرته» فإذا سقط في دين أو دنيا أقاله، كأنه لم يحدث له سقوط^(١).

وجاء في رواية أن رجلاً في عهد رسول الله ﷺ شرب الخمر، فجاءوا به إلى الرسول فأقام عليه الحد، ولما خرج وقع الجالسون فيه، قال أحدهم: اللهم العنه، وقال آخر: اللهم أخزه، فالتفت إليهم رسول الله ﷺ قائلاً: «لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك» قالوا: فما نقول يا رسول الله؟ قال ﷺ: «قولوا: اللهم اهده، اللهم أصلحه، اللهم اغفر له».

لماذا يتلقف الواحد منا عشرة أخيه وكأنه أدرك مكسباً أو حقق أمنية؟ ولماذا يستغل البعض أتفه الأسباب ليدخل معركة مع الآخرين؟

لقد كان أئمة الهدى ﷺ يتسامون على الإساءات، ويتجاوزون عن الأخطاء، ليعلموننا الرزاة أمام المثيرات، كما نقل في سيرة الإمام زين العابدين ﷺ أنه مر برجل فبادر الإمام بالسب والشتم، فمشى الإمام معرضاً عنه كأنه غير مقصود بكلامه، فاقرب إليه الرجل قائلاً: (إياك أعني) وأجابه الإمام فوراً: «وعنك أغضي» وانصرف عنه. ومرة

(١) الشيرازي: السيد محمد، إيصال الطالب إلى المكاسب، ج ٣، ص ١٣١.

أخرى افتري عليه رجل وبالع في سبه، فالتفت إليه الإمام بهدوء وبرودة أعصاب قائلاً: «إن كنا كما قلت: فنستغفر الله، وإن لم نكن كما قلت: فغفر الله لك»^(١).

أسباب وخلفيات:

هناك أسباب وخلفيات وراء هذا السلوك الانفعالي المتشنج، لعل من أبرزها ضعف الوعي والمعرفة بطبيعة الحياة والبشر، أو الغفلة عن ذلك وسيطرة التفكير المثالي، حيث بعض الناس يرسمون في أذهانهم صوراً مثالية للأمور والأشخاص، ويرون الواقع لا يتطابق مع تلك التصورات المثالية، فتصدمهم تلك المفارقة بين المثال الواقع.

ويكرّر بعض الناس دائماً عبارة: المفروض كذا والمفروض كذا حينما يقومون الآخرين وأعمالهم، لكنهم ينسون أنفسهم ومطالباتها بالمفروضات عليها، قبل مطالبة الآخرين.

كما أن حالة القهر والاستضعاف قد تنمي في نفس الإنسان الانفعالية والتشنج تجاه أنداده أو من هم دونه، كرد فعل لما يخترن من غضب وسخط تجاه المسيطرين عليه، حيث لا يستطيع مجابهتهم.

وللتربية العائلية والبيئة الاجتماعية دور مؤثر في تكوين وتكريس هذه الحالة، فتعامل العائلة مع الطفل، وسلوكها أمامه، يصوغ شخصيته

(١) القرشي: باقر شريف، حياة الإمام زين العابدين، ص ٧٧.

بنفس الاتجاه، وكذلك البيئة المحيطة بالإنسان تنعكس أخلاقياتها على نفسه وسلوكه.

منهجية الاستيعاب:

كما أن التشنج والانفعال أمام المشاكل والأزمات خطأ مرفوض، فإن الاستسلام والخضوع للمشكلة ليس هو المطلوب، وإنما الصحيح استيعاب المشكلة عبر فهمها أولاً بخلفياتها وحجمها وحدودها، دون تضخيم أو تهويل، وفي المرحلة الثانية: التفكير في مواجهة المشكلة بموضوعية وتأن، ودون تسرع وارتجال، وثالثاً وأخيراً: حشد الطاقة والقدرة لتجاوز المشكلة.

هذه المنهجية هي التي تمكن الإنسان من تخطي مشاكل الحياة وعقباتها، وتحول المشاكل والتحديات وسائل ودوافع لتفجير مواهبه وتنمية طاقاته.

وقد نجد في مصطلح (شرح الصدر) الوارد في النصوص الدينية ما يعبر عن هذه المنهجية، في مقابل ضيق الصدر الذي يعبر عن حالة التشنج والانفعال.

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾^(١).

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

وأول نعمة يمتن الله تعالى بها على نبيه محمد ﷺ نعمة سعة الصدر التي استوعب بها مشاكل الدعوة، ومواجهة المشركين، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾^(١).

وحينما أمر الله نبيه موسى ﷺ أن يذهب إلى فرعون، ليردعه عن طغيانه، وليدعوه إلى طاعة ربه، فإن موسى طلب من الله أن يمنحه شرح الصدر ليستوعب مضاعفات وأعباء هذه المهمة الضخمة: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾^(٢).

وكلما كان طموح الإنسان أكبر، ودوره أرفع، احتاج إلى مستوى أعلى من سعة الصدر، لاستيعاب المشاكل والصعوبات، ورد عن الإمام علي عليه السلام: «آلة الرياسة سعة الصدر».

(١) سورة الشرح: الآية ١.

(٢) سورة طه: الآيتان ٢٤-٢٥.



العوائق بين الإيجاب والفاعلية

ما هي خيارات الإنسان تجاه العوائق التي تنتصب أمام احتياجاته ورغباته في هذه الحياة؟

وكيف يتعامل مع الأزمات والمشاكل حينما تواجهه في أي ميدان من الميادين؟

هنالك ثلاثة خيارات تتراوح بينها مواقف الناس:

١. الاستسلام:

فالكثيرون يتراجعون أمام العوائق، ويتخلون عن تطلعاتهم وأهدافهم، ويستسلمون لكل تداعيات المشكلة ومضاعفاتها، ويعترفون بالعجز والفشل، وأن ذلك قدرهم الذي لا خيار لهم إلاّ قبوله.

وحينما تسيطر نفسية الاستسلام على الإنسان، فإنها تفرض عليه

الانضام والانسحاب أمام أبسط التحديات، وأقل الصعوبات، ودون أن يبذل جهداً كافياً لتجاوز ما يواجهه من عوائق.

٢. الانفعال النفسي:

وبالعوض من الناس حينما تصطدم رغباتهم بعوائق وموانع، ويواجهون وضعاً غير مريح لهم، فإنهم يعيشون حالة من التوتر النفسي الدائم، ويصابون بالكآبة والإحساس بالقهر، وقد يؤدي بهم ذلك إلى حالة الشعور بالإحباط والقنوط.

وهذا الخيار أسوأ وأخطر من الخيار السابق، الذي يتراجع فيه الإنسان عن رغبته، ويعلن الاستسلام والقبول بالهزيمة.

إنه هنا لا يتخلى عن رغبته، بل يزداد انشداداً إليها، ويعاني الشعور بالحرمان منها، ويستحضر في نفسه وذهنه دور العوائق في عدم تحقيق تلك الرغبة بشكل دائم، مما يجعله عرضة للاضطراب النفسي، والمعاناة الشديدة.

الإحباط:

ويطلق علماء النفس على هذه الحالة مسمى (الإحباط) (frustration) وهو تعبير عن الحالة التي يمر بها الفرد حين لا يتوافر له إشباع دافع يلح عليه ويشعره بالحاجة، ويعرفونه بأنه: عملية تتضمن إدراك الفرد لعائق يعوق إشباع حاجة له، أو توقع حدوث هذا العائق

في المستقبل^(١).

وتتفاوت درجات الشعور بالإحباط حسب تفاوت إلهام الدافع، وقوة العائق، فكلما كان دافع الإنسان شديداً نحو غرض معين، وكان العائق قوياً، تصبح حالة الإحباط عنيفة بنفس الدرجة والمستوى. وينتج الإحباط خاصة في درجاته المتقدمة، آثاراً تدميرية خطيرة على حياة الإنسان والمجتمع.

فهو يمعن في تمزيق نفس الإنسان، ويجعله يعيش حالة دائمة من السخط والتوتر، ويفقده بالتالي الإحساس بالسعادة، والتمتع بمباهج الحياة، فيتناسى ويتجاهل كل ما لديه وحوله من المكاسب، ومنابع اللذة والارتياح، ويتركز نظره وتفكيره حول ما تعذر عليه نياله والوصول إليه.

فتصبح الدنيا في عينه سوداء قاتمة، ويصبح هو كئيباً متشائماً، وقد خاطب هذه الشريحة من الناس الشاعر العربي إيليا أبو ماضي ليدعوهم إلى تجاوز حالتهم المرضية، وأن يكونوا أكثر واقعية وتكيفاً مع أوضاع الحياة، وأكثر أملاً وتفاؤلاً بالالتفات إلى الجوانب المشرقة السارة فيها حيث يقول:

لم تشتكي وتقول إنك معدم والأرض ملكك والسما والأنجم
ولك الحقول زهورها وعيرها ونسيمها والبلبل المترنم

(١) الرفاعي: نعيم، الصحة النفسية، الطبعة السابعة ١٩٨٧م، جامعة دمشق، ص ١٦٩.

هشت لك الدنيا فمالك واجم وتبسمت فعلام لا تبسم
 ما بين أشجار كأن غصونها أيد تصفق تارة وتسلم
 والإحباط يشلُّ إرادة الإنسان، ويمنعه من التفكير في السعي
 والحركة، حيث يفقد الثقة في ذاته، وفي جدوى أي محاولة أو نشاط.

الإحباط دافع للعدوان:

وفي أسوأ مرحلة قد يصبح الإحباط دافعاً نحو العدوان، حيث
 يظهر المصاب بالإحباط شديد التوتر، ميلاً إلى اقتناص أية فرصة
 للخلاص من ضغط التوتر لديه.

إننا نلاحظ مثل هذه الحالة عند بعض الأطفال، حينما يفتقدون
 الرعاية التي اعتادوها، أو يحال بينهم وبين بعض رغباتهم، فإنهم قد
 يقومون بنشاط تخريبي، فيضربون ويكسرون ما حولهم من الأواني
 والأثاث.

وقد يأخذ العدوان الناشئ من الإحباط شكلاً كلامياً أحياناً
 كالشتائم والكلام القاسي، وقد يأخذ شكلاً عاطفياً كاختزان الكراهية
 والحقد على الآخرين، وقد يتفجر عنفاً باتجاه الذات أو الغير.

إنَّ حالات الانتحار هي في الغالب إفراز لمستوى متقدم من
 الإحباط، يهيمن على نفس الفرد، ويدفعه لإنهاء حياته، للخلاص من
 ضغط التوتر الإحباطي الذي يعانيه.

لذلك يرى علماء النفس أنَّ مرض الاكتئاب قد يكون السبب

الرئيس وزراء محاولات الانتحار، وتقدر الباحثة الأميركية الدكتورة (جانيس وتينزل) في كتابها (الاكتئاب الإكلينيكي) إلى أنّ هناك ٢٠٠ ألف شخص كل عام يحاولون الانتحار والتخلص من حياتهم، إلا أنّ الذين ينجحون في الانتحار وقتل أنفسهم هم ٢٥ ألف شخص من بين المئتي ألف سنوياً^(١).

ويشير تحقيق نشرته جريدة الوطن السعودية إلى أنّ نصف مليون شخص يحاولون قتل أنفسهم سنوياً، وأنّ الإقدام على الانتحار ليس رغبة في الموت، بل للهروب من الألم، وفي أميركا زاد عدد الذين ينتحرون على الذين يُقتلون عن طريق الغير. والانتحار عادة ما يكون بسبب زيادة الضغوط النفسية.

وتعرّض التقرير لوجود هذه الظاهرة وتساعد أرقامها في المملكة، فحسب إحصاء وزارة الداخلية السعودية لعام ١٤٢٠ هـ تجاوزت حالات الانتحار ومحاولة الانتحار ٤٠٠ حالة. ومن بين المنتحرين مواطن سعودي حاصل على درجة الدكتوراه، وضابط برتبة نقيب، ونساء غير متزوجات، الأمر الذي يعني أنّ هناك أكثر من حالة انتحار يومياً^(٢).

(١) الاقتصادية: جريدة يومية، ٣٠ يناير ٢٠٠١م، ص ٥.

(٢) الوطن: يومية سعودية، ٧ ديسمبر ٢٠٠٠م، ص ١٧.

الإحباط قنوط من رحمة الله:

عالج الإسلام حالة الإحباط تحت مسمى «القنوط» حيث وردت آيات وأحاديث عديدة، تحذر الإنسان من خطر القنوط، وتعدّه مساوفاً للكفر بالله تعالى، والضلال عن منهجه القويم.

والقنوط لغة: مصدر قولهم: قَنَطَ يَقْنُطُ إذا يئس يأساً شديداً. قال ابن الأثير: القنوط هو أشد اليأس من الشيء، وقيل: القنوط: اليأس من الخير. ويبدو أن القنوط أبلغ من اليأس، للترقي إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾^(١).

وعدّ علماء الإسلام القنوط من رحمة الله من الكبائر. يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^(٢).

والآية وردت في سياق قصة نبي الله إبراهيم الخليل، حيث تقدم به وزوجته العمر ولم يرزقا ولداً، فجاءت الملائكة تبشره ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾^(٣) لكنه لم يكن متوقفاً لحصول ذلك بسبب كبر سنه ﴿قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾^(٤)، فحذرته الملائكة من أن يقع في حالة القنوط ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ

(١) سورة فصلت: الآية ٤٩.

(٢) سورة الحجر: الآية ٥٦.

(٣) سورة الحجر: الآية ٥٣.

(٤) سورة الحجر: الآية ٥٤.

مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿١﴾، لكنه أشار إلى إدراكه ومعرفته بسوء وخطر هذه الحالة، وأنها تصيب الضائعين التائبين ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

وحتى الذين يتورطون في معاصي الله ويرتكبون الذنوب والآثام، فإن الله تعالى يفتح أمامهم أبواب الأمل والرجاء، ويحثهم على التوبة والإنابة، حتى لا يصابوا بحالة قنوط وإحباط تدفعهم أكثر إلى أحضان الجريمة والانحراف. يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

وفي حديث شريف مروي عن رسول الله ﷺ عن ابن مسعود ؓ أنه قال: «الفاجر الراجي لرحمة الله تعالى أقرب منها من العابد المقنط» (٣).

ويشير الإمام علي ؑ إلى ما يسببه القنوط لصاحبه من الحرمان وضياع الفرص والمكاسب بقوله: «وفي القنوط التفريط» (٤).

(١) سورة الحجر: الآية ٥٥.

(٢) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٢١١.

(٤) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، ج ٣، ص ١٤٠، حديث رقم ٥٨٦٩.

٣. الفاعلية :

الخيار الثالث تجاه العوائق والعقبات، هو الفاعلية والسعي، ذلك أن قسماً كبيراً من العوائق ليس مستعصياً على التجاوز والاختراق، لكنه يحتاج إلى بذل مزيد من الجهد، واستخدام ألوان من الوسائل والأساليب، فالبعض من الناس إذا ما استوقفهم في طريق تحقيق رغباتهم واحتياجاتهم عائق أو حاجز، يهرعون سريعاً إلى التراجع والانسحاب، ويسرون ضمن أحد الخيارين السابقين.

بينما أثبتت التجارب ووقائع الحياة، أن الاجتهاد في السعي، وتكرار المحاولات، وتجديد الأساليب والوسائل، كفيل بمساعدة الإنسان على تحقيق مآربه، والوصول إلى أهدافه غالباً.

إن الطفل الصغير قد لا يستجيب له والداه في تنفيذ رغبته من أول إشارة أو طلب، ومن وحي فطرته وطبيعته يبقى مصراً على ما يريد مستخدماً سلاح البكاء والصراخ، حتى يتم له تحقيق رغبته.

وكم من طالب تعثر في طريق الدراسة وطلب العلم، لكنه مع المواصلّة والإصرار نال رفيع الدرجات.

ويدرك كل مراجع للمؤسسات العامة والخاصة أنه قد تُرفض معاملته وطلبه في بادئ الأمر، لكنه إذا تابع المعاملة، وأكمل نواقصها، أو رفعها إلى الجهات العليا في تلك المؤسسة، فإنه قد يحظى بالنجاح والقبول.

الالتفاف على العائق:

قد يواجه الإنسان عائقاً قاهراً يصعب اقتلعه وتجاوزه، إما لطبيعة ذلك العائق، كالعاهات والإعاقات الجسدية، وإما لاستلزامه ظرفاً وقدرة لا يمتلكها الإنسان بالفعل.

وهنا يجب أن يتحلى الإنسان بالواقعية، فلا يصبح أسيراً لتلك المشكلة التي لا يمتلك حلها بالفعل، بل يخرج عن سيطرتها على نفسه ومشاعره، ويلتفت إلى سائر نقاط قوته، وإلى الإمكانيات المتوفرة لديه، والفرص الأخرى المتاحة أمامه، وبذلك يستطيع أن يحقق لنفسه تقدماً ونموً يعوّض عليه ما فقده من تطلع ورغبة بسبب تلك العوائق، وقد يجد نفسه في موقع أفضل ومستوى أعلى.

إن من يعيش في مقتبل عمره حالة يُثم بفقد والديه أو أحدهما، فيعاني حرماناً عاطفياً، ويفتقد الرعاية التي يرى غيره يتمتع بها، هذا الإنسان إذا سيطرت على نفسه معاناة اليتيم، وخضع لها، فسيعيش الألم والتمزق النفسي، الذي قد ينعكس عليه اكتئاباً وإحباطاً، وقد يدفعه لتوجهات سلبية خاطئة. وستكون حياته متخلفة، ومستقبله سيئاً.. بينما لو تكيّف مع حالة اليتيم كأمر واقع، لا يستطيع تغييره ولا تبديله، واتجه لاكتشاف قدراته، وتنمية طاقاته، فإنه سيصبح في وضع جيد، ومستوى متقدم، يتفوق به على آخرين عاشوا في كنف آبائهم وأمهاتهم، لكنهم لم يمتلكوا مؤهلاته ومستواه.

وكذلك من يتلي بإعاقة جسدية كفقد البصر، أو تشوّه الخلقة، أو حالة كساح أو شلل.. فإنه إذا وقع في أسر معاناته، واستجاب نفسياً لحالة النقص التي عنده، فسيحكم على نفسه بالإنزواء والانهيّار، أما إذا تجاوز تلك الإعاقة نفسياً، وفتش عمّا لديه من نقاط قوة أخرى، وفعلها ونمّاها، فسيكون مرشحاً لأداء دور مؤثر في الحياة، قد يتفوق من خلاله على الأصحاء العاديين.

وكم من معوّق أصبح في مصافّ العظماء، وحقق تقدماً وانجازاً في تاريخ البشرية.. ونقرأ في تاريخنا العربي عن شخصية رائدة في الفلسفة والأدب هو أبو العلاء المعرّي (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ، ٩٧٣ - ١٠٥٧ م) الذي فقد بصره وهو في الرابعة من عمره على إثر إصابته بالجدري، لكنه أقبل على العلم والأدب، ونمّى في نفسه القدرة على الحفظ، فكان يبحث عن الكتب والمكتبات، ويجتهد في حفظ ما يقرأ عليه منها، حيث توجه من بلده حلب إلى انطاكية واستفاد من مكتبة عامرة فيها، تشتمل على نفائس الكتب، فحفظ منها ما شاء الله أن يحفظ، وذهب إلى اللاذقية فدرس اليهودية والنصرانية، وزار طرابلس قاصداً مكتبة كبيرة فيها، ثم تردد في طور لاحق على مكتبات بغداد ودور العلم بها، فأصبح أديباً نابغاً، روى الثعالبي عن أبي الحسن المصيصي الشاعر قوله: لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يدخل في كل فن من الجد والهزل يكنى أبا العلاء، وسمعته يقول: أنا أحمد الله على العمى، كما يحمدّه غيري على

البصر، فقد صنع لي وأحسن بي إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء.

وأشار ابن العديم إلى قوة حفظ أبي العلاء برواية حكاية عن ابن منقذ ذكر فيها أنه يقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فيحفظهما، ولم يعلم له من شيوخ بعد سن العشرين، وذكر هو أنه لم يحتاج إليهم بعدها^(١).

إن فقد البصر لم يقعد به عن طريق المجد والتقدم، بل اكتشف موهبته في الحفظ ونماها، واستفاد من عشقه للعلم والمعرفة فنهل منها. وأصبح شخصية علمية أدبية عالمية.

ومن الأمثلة المعاصرة لأشخاص تجاوزوا إعاقاتهم، وحلقوا في سماء العظمة والعبقرية، العالم البريطاني المعروف (استيفن هاوكنج) الذي يعد أبرز العلماء في الفيزياء والرياضيات، في النصف الثاني من القرن العشرين.. لقد أصيب بمرض وهو في السابعة من عمره، وصارع المرض حتى أصبح كسيحاً يتحرك على مقعد ذي عجلات، ولا يستطيع التكلم بشكل طلق ومفهوم، فلا تفهم له إلا سكرتيرته أو تلامذته القريبون، لكنه صار أستاذ الرياضيات العليا في جامعة (كامبردج) الشهيرة، وعيّن وعمره ٣٢ سنة في الجمعية العلمية الملكية البريطانية، وشغل فيها كرسي نيوتن، سنة ١٩٧٤ م.

وقدم نظريات علمية عظيمة وجديدة حول الكون، وفي الفيزياء

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٣، الطبعة الثانية ١٩٩٩ م، الرياض، ص ٤٨٠.

والرياضيات، وله أبحاث كثيرة مطبوعة، ترجم منها إلى اللغة العربية كتابه (تاريخ موجز الزمان).

مجتمعات تتحدى العوائق:

وعلى صعيد المجتمعات، قد يواجه مجتمع ما ظرفاً قاهراً، تعاق فيه حركته، ويقع تحت سيطرة مناوئة، فإذا ما استسلم وخنع فسيعيش التخلف والذل، وإذا ما سيطرت على أبنائه حالة الاحباط والقنوط فسينكفئون على أنفسهم، وتظهر في أوساطهم تيارات العنف والتطرف، أما إذا شمرّوا عن سواعد الجد والنشاط، واهتموا ببناء كفاءاتهم، وصقل مواهبهم، واستثمار الفرص المتاحة أمامهم، فسيفرضون أنفسهم على ساحة الحياة، ويصنعون لمجتمعهم معادلة جديدة من القوة والتقدم.

ولعلّ الشعب الياباني أفضل مثل يقدم في التاريخ المعاصر، فقد خرج هذا الشعب من الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ م، منهزماً محطّم القوى، بعد إصابته بالقنبلة الذرية في هيروشيما ونكازاكي.

وكانت خسائرهم البشرية تقدر بمليونين وثمانين ألف إنسان، وخسائرهم الاقتصادية تزيد على ٥٦٢ مليار دولار.

وحينما قرر الامبراطور الياباني وحكومته الاستسلام انتحر آلاف الضباط تألماً واحتجاجاً. وفرضت عليهم شروط وجود قواعد أمريكية، وعدم عسكرة اليابان، وأن يكون جيشهم بحجم حاجتهم

الداخلية.

لقد كان هذا الظرف قاهراً ومفروضاً عليهم، ولا يستطيعون مواجهته بالقوة، لكنهم لم يستسلموا لليأس والقنوط، ولم تسيطر عليهم حالة الإحباط، ولم ينشغلوا باجتراح الغبن، والبكاء الدائم على مصائبهم، بل سارعوا بعد تسعة أشهر من انتهاء الحرب إلى تشكيل مجلس أعلى قرر البدء بالإصلاح الشامل، واتجهوا صوب التعليم، ونحو التصنيع التكنولوجي، وحفزوا الهمم في أنفسهم، واجتهدوا في تفجير كفاءاتهم ومواهبهم، وأسسوا مجالس منتخبة لتطوير المدارس واستيعاب أكبر قدر من الطلاب فكان من نتائج ذلك ما يلي:

■ أصبح الطفل الياباني في الرابعة عشرة من عمره، يتلقى تعليماً لا يتلقاه الأمريكي إلا في الثامنة عشرة من عمره.

■ وتبلغ أيام الدراسة في اليابان ٢٢٠ يوماً، بينما هي في أمريكا ١٨٠ يوماً.

■ وبينما يحقق الطالب الأمريكي والأوروبي ١٠٠ نقطة في اختبارات الذكاء فإن الطالب الياباني يحقق ١١٧ نقطة.

أما على الصعيد الاقتصادي، فإن الدخل القومي لليابان سنة ١٩٥١م كان يعادل ثلث الدخل القومي لبريطانيا، ونصف دخل أمريكا، لكنه في سنة ١٩٩٠م أصبح بمقدار ثلثي دخل أمريكا وثلاثة أضعاف دخل بريطانيا!!

وأصبحت اليابان أغنى دولة في أصولها المالية والعقارية، حيث وصلت ثروتها في هذا المجال إلى ٤٣ تريليون دولار، بينما تقدر ثروة أمريكا في ذات المجال ٣٦ تريليون دولار.

وتعبيراً عن هذا التقدم الاقتصادي أصدر رئيس شركة سوني اليابانية كتاباً سنة ١٩٨٨ م بعنوان (اليابان يمكن أن تقول «لا» للولايات المتحدة الأمريكية).

ومعروف أن معدل الأعمار في اليابان هو الأعلى عالمياً، حيث يصل إلى ٨٢ عاماً للنساء، و٧٦ عاماً للرجال، وفيها أكثر من ٤٠٠٠ شخص أعمارهم تزيد على ١٠٠ عام.

هكذا تكون الفاعلية أفضل طريق وأحسن خيار للالتفاف على العوائق، ولتحقيق تطلعات التقدم والرقي، على صعيد الفرد والمجتمع.

قلق الاختبارات

يعيش الطلاب والطالبات ومعهم أسرهم، ما يشبه حالة الطوارئ، والظروف الاستثنائية، استعداداً لمواجهة الاختبارات في مراحل التعليم المختلفة. وذلك يعكس موقعية التعليم في حياة الإنسان المعاصر، حيث أصبح محددًا أساساً لقيمه الاجتماعية، ولتشكيل حياته المعيشية. ولأن الاختبار هو نقطة العبور من محطة تعليمية إلى أخرى، وهو بوابة التخرج إلى ميدان الحياة العامة، والتأهيل الوظيفي والعمل، ولأن معدّل الدرجات التي يحصدها الطالب، ومستوى الأداء في الاختبار يؤثر في تحديد المرحلة التالية، وفي مقدار نوعية الخيارات والفرص المتاحة أمام الطالب المتخرج والطالبة المتخرجة، لكل ذلك من الطبيعي أن تواكب الاختبارات هذه الدرجة العالية من الاهتمام.

بين الاهتمام والقلق:

وإذا كان الاهتمام بالاختبارات مطلوباً، ليكون الطالب أفضل استعداداً وقدرة على الأداء، ولتقف الأسرة خلفه مشجعة ودافعة نحو المزيد من الجهد والاجتهاد. فإن المبالغة في الاهتمام ليتحول إلى حالة من القلق العالي أمر مضر، ويؤدي إلى نتائج عكسية.

ويبدو أن الكثير من الطلاب والطالبات وعوائلهم في مختلف المجتمعات، يعانون من درجة عالية من القلق، تتابهم في أوقات الاختبارات، وتخلّف العديد من الآثار والمضاعفات السلبية.

وقد اهتم الباحثون وخبراء علم النفس التربوي بهذه الظاهرة، ورصد نتائجها، وخاصة على صعيد مستوى الإنجاز الأكاديمي للطلاب.

فمنذ منتصف الخمسينيات من هذا القرن وحتى الآن، أُجريت العديد من الدراسات والبحوث، في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، حول موضوع قلق الاختبارات عند الطلاب، في كل المراحل التعليمية المختلفة. وحصلت دراسات قليلة محدودة حول ذات الموضوع في العالم العربي.

ووضع بعض الخبراء قياسات لتحديد درجة القلق من الاختبار، عبر طرق عديدة، ولعل استفتاءات التقرير الذاتي (self Report) هي أشهر تلك الطرق المستخدمة، وهناك مقياس قلق الاختبار Test

Anxiety Inventory من إعداد Spielberg وزملائه^(١).

وتقدر الدراسات المختلفة في أمريكا وأوروبا أن حوالي ٢٠٪ من طلبة المدارس يعانون من قلق الاختبار، بدرجات متفاوتة، وأن ٢٠٪ من المتعلمين الذين كانوا يعانون من درجة عالية من قلق الاختبار، تسربوا من المدرسة، بسبب الفشل الأكاديمي^(٢). ويفترض أن هذه النسب تكون مرتفعة في العالم الثالث.

النتائج العكسية :

إن ما يطمح إليه الطالب هو تجاوز الاختبار بنجاح، وتحقيق معدل متقدم، وهو ما تتمناه له أسرته، والإخفاق في تحقيق هذا الطموح هو ما يوجب القلق والخوف، إن الدرجة المقبولة من القلق هي التي تبعث على المزيد من الجهد والاجتهاد، والتهيؤ والاستعداد.

لكن شدة القلق التي تعتبر حالة سلبية مرضية، تؤدي إلى نتيجة عكسية، وتوقع الطالب فيما يحذر منه، وتفوت عليه فرصة النجاح والتقدم. لأنها تحدث عنده حالة انفعالية مصحوبة بتوتر وتحفز، وحدة انفعال، وانشغالات عقلية سلبية، تفقده القدرة على التركيز

(١) الطواب: سيد محمود، قلق الامتحان والذكاء والمستوى الدراسي وعلاقتها بالتحصيل الأكاديمي، ص ١٦١، مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت، المجلد العشرون، العدد الثالث / الرابع ١٩٩٢م.

(٢) قسم علم النفس التربوي - جامعة اليرموك: قلق الاختبار والأفكار العقلانية واللاعقلانية، مجلة علم النفس، العدد ٢٦، السنة السابعة ١٩٩٢م.

المطلوب في المذاكرة وأثناء الاختبار.

إن القلق الشديد ينبعث من ضعف الثقة بالنفس، حيث يشكك في قدرته على استيعاب المادة، أو استذكار المعلومة عند الحاجة إليها. كما تغذيه بعض الأفكار الوسواسية، والهواجس التشاؤمية، التي تجعل الطالب أمام شبح الفشل المرعب، والمصير القاتم المجهول. وكم من طالب يكون استيعابه للمادة جيداً، وحافظته للمعلومات يقظة، وقدرته على الاستعادة والاستذكار مناسبة، لكن ارتفاع درجة القلق لديه، وانشغاله بالهواجس والمخاوف، يصيبه بنوع من الإرباك والاضطراب، فتشتت أفكاره، وتفلت المعلومات من بين يديه، ويتردد في اختيار الإجابات، وبالتالي يكون أداؤه ضعيفاً سيئاً.

إن الطالب نفسه لو أتاح لنفسه فرصة الاطمئنان والارتياح النفسي، ولو سيطر على حالة القلق والخوف لديه، لو جد في قدراته وإمكاناته الخير الكثير، ولو واجهته الأسئلة التي تعثر أمامها في موقف الاختبار، ضمن حالة طبيعة، لما رأى صعوبة في تقديم الإجابات الصحيحة عنها. لكن سيطرة الحالة السلبية عليه أعاقته عن حسن الأداء والإنجاز.

وكما يتحدث علماء النفس، فإن الإنسان حينما تواجهه مهمة ما، يحتاج إلى تركيز انتباهه، وتوجيه طاقاته نحو أدائها، وأن يتمحور اهتمامه بالأمر المطلوب ذاته، لكن حالة القلق العالي تنتج لديه استجابات غير مرتبطة بالمهمة المطلوبة، وغالباً ما تكون مركزة حول

الذات. فمثلاً الطالب في موقف الاختبار، يحتاج إلى تركيز اهتمامه وذهنه حول الأسئلة المثارة أمامه، لكن الإفراط في القلق يشغل ذهن الطالب، بما يدور في أحاسيسه ومشاعره، فقد يجد نفسه مستغرقاً في التفكير حول ما سترتب على فشله وضعف أدائه، وكيف سيكون موقفه أمام أهله أو زملائه؟

وهناك دراسات علمية ميدانية كثيرة، وخاصة في المجتمعات الغربية، اهتمت ببيان العلاقة بين قلق الاختبار والإنجاز الفعلي عند الطلاب، وأكدت الارتباط بين مستويات القلق العالي للاختبار، وانخفاض مستوى الأداء الأكاديمي عند الطلاب، حيث توصلت إلى أن الطلاب الذين يعانون من القلق العالي للاختبار، يحصلون غالباً على تقديرات أقل في هذه الاختبارات، مقارنة بالطلاب الآخرين ذوي القلق المنخفض.

وتشير نتائج عدد من الدراسات في هذا المجال، إلى أن الأفراد الذين يعانون من درجة عالية من قلق الاختبار، يقضون كثيراً من وقتهم قبل وخلال الاختبار وهم:

١. منزعجون حول أدائهم ويفكرون في أداء الآخرين.
٢. يفكرون في الخيارات الأخرى التي يمكن اللجوء إليها في حالة فشلهم في الاختبار.
٣. تتابهم بشكل متكرر مشاعر العجز وعدم الكفاية.

٤. يتوقعون العقاب وفقدان الاحترام والتقدير.

٥. تتنبههم ردود فعل واضطراب فسيولوجية مختلفة.

وينتج عن هذا كله نوبات من الاضطراب أو الهيجان الانفعالي، الأمر الذي يعيق التركيز والانتباه لمهمة الإجابة عن أسئلة الاختبار، ويؤدي بالتالي إلى ضعف الأداء.

الثقة والاطمئنان:

الثقة بالنفس والاطمئنان هي أهم قوة يتسلح بها الطالب في موقف الاختبار، فهي التي تمكنه من استيعاب موادّ دراسته عند المذاكرة والمراجعة، وهي التي تركز انتباهه على ما يواجهه من أسئلة الاختبار، وتعطيه الفرصة لاسترجاع المعلومات واستدكارها بشكل منظم وفق الحاجة إليها.

أما كيف يتوفّر الطالب على هذه الصفة؟ وكيف يمتلك هذه القوة؟ فإن عوامل عديدة لها دور في بناء الشخصية على أساس الثقة والاطمئنان، منها: التربية العائلية السليمة، ومنها الثقافة والوعي الصحيح، الذي يخلق عند الإنسان منهجية التعامل والتصرف السليم في مختلف الظروف والأزمات.

وهذا ما تؤكده القيم والمفاهيم الدينية التي تجعل الإنسان على صلة دائمة بالله سبحانه وتعالى، هذه الصلة تشيع في النفس الثقة والاطمئنان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ

تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿١﴾.

وذكر الله هنا يعني تلك المنظومة من القيم والمفاهيم التي يؤمن بها الإنسان المسلم، وينظر من خلالها إلى الحياة والأمر، فيكون موضوعاً في تفكيره، منطقياً في حساباته، متحملاً لواجباته ومسؤولياته، دارئاً عن نفسه المخاوف والقلق بالتوكل على الله، والثقة به وبما رزقه الله من قدرات وإمكانات ذاتية عظيمة. ويقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٢) والقول الثابت هو منهجية التفكير الصحيح، ونمط السلوك السليم.

من ناحية أخرى، فإن استعداد الطالب وتهيئه للاختبار، باهتمامه الدراسي طوال العام، ومراجعته الدقيقة لكل مادة يذهب لاختبارها، يجعله على بصيرة من أمره، واثقاً من نفسه. إن مشكلة بعض الطلاب والطالبات هي التساهل في دروسهم، وعدم الاجتهاد في استيعابها أثناء الدراسة، والتسويق في المذاكرة، فيداهمهم الاختبار، وهم على غير أهبة كافية، فيضغطون على أنفسهم في وقت محدود قصير قبل الاختبار، وذلك من أهم أسباب الإصابة بحالة القلق الشديد.

ويمكن القول هنا إن حالة الطالب في موقف الاختبار، تعكس مجمل علاقته مع المدرسة والتعليم، فالطالب الجادّ المجدّ، يستقبل

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

الاختبار بثقة واطمئنان غالباً، ويتعامل معه ضمن حالته الطبيعية، ووضعه الاعتيادي، مع درجة من التركيز والاهتمام. أما الطالب الضعيف في جديته واجتهاده، أو الذي يعاني من مشاكل في علاقته مع المدرسة والتعليم، فإنه يجد نفسه في سباق مع الزمن للمذاكرة في آخر الوقت، فيدخل قاعة الاختبار وهو غير متأكد من استيعابه للمادة، مما يجعله فريسة سهلة للقلق والاضطراب.

كما أن للظروف الحياتية التي يعيشها الطالب أيام الاختبار دوراً في استقرار حالته النفسية، فالسهر ليلة الاختبار وقلة النوم، وارتباك البرنامج الغذائي، قد يؤثر على قدرة التركيز الذهني، ويساعد على رفع مستوى القلق والتوتر النفسي.

دور العائلة :

ينبغي أن تساعد العائلة أبناءها طلاباً وطالبات في تجاوز مرحلة الاختبار بثقة ونجاح، وذلك بالاهتمام المسبق الدائم بوضعهم الدراسي، فليس صحيحاً أن تغفل العائلة عن متابعة الوضع التعليمي لأبنائها، ثم تبالغ في الاهتمام فجأة عند الاختبار.

وللعائلة دور أساس في زرع الثقة في نفس الطالب - الطالبة، وترشيد حالة القلق لتكون ضمن الوضع الطبيعي الإيجابي، وتوفير الأجواء المساعدة له على المراجعة الكافية لدروسه، وتشجيعه ليكون أكثر ثقة واطمئناناً.

وتخطئ بعض العوائل حينما تبالغ في الضغط على الأولاد فترة الاختبارات، وتواصل تحذيرهم من الرسوب، وتتوعدهم على الإخفاق، فتزيدهم قلقاً واضطراباً، وتسبب لهم أضراراً تطاول أعماق نفوسهم وتكوين شخصياتهم.

إن مستويات الذكاء تختلف من طالب إلى آخر، وليس التفوق وإحراز أرفع الدرجات أمراً متوقعاً من كل طالب، كما أن الرغبة في التعليم متفاوتة أيضاً بين الطلاب، فيجب أخذ هذه الأمور بعين الاعتبار. ولا يجوز استخدام أساليب القمع والقسوة مع الولد إذا كان قاصراً في استيعابه، أو مقصراً في اجتهاده، إلا بمقدار التوعية والتنبيه والتأديب، ضمن الحدود المعقولة، بما لا يتجاهل إنسانيته وحقوقه، ولا يدفعه إلى ردات فعل خطأ منحرفة، تضر بحياته الشخصية، وارتباطه العائلي.

المدرسة والمعلم:

المدرسة هي جهة الاتصال المباشر مع الطالب في الشأن التعليمي، وكما هي معنية بالمستوى العلمي الدراسي، فهي مؤثرة في الجانب التربوي النفسي، فمهمتها تربوية تعليمية، لذلك تطلق كثير من الدول على الوزارة المعنية بالتعليم عنوان وزارة التربية والتعليم.

والجانب التربوي هو أرضية التعليم، وهدف أساس له، واهتمام المدرسة بالتربية يخدم الإنجاز التعليمي. ومن أجل ذلك يجب أن

تسعى المدرسة لإقامة أفضل العلاقات مع طلابها، لينجذبوا إليها نفسياً، ويرتبطوا بها عاطفياً، عبر تعامل المدرسين الأبوي مع الطلاب. فالمعلم بمثابة أب للطلاب، أو أخ أكبر له، وكذلك المعلمة عليها أن تشعر بالأمومة لطلابها، والصدقة لهن، وأحوج ما يكون الطلاب إلى رعاية معلمهم هو في وقت الاختبارات.

إن هدف الاختبارات هو التأكد من استيعاب الطالب للمادة العلمية التي درسها، واهتمامه بمراجعتها، فالأسئلة التي توضع للاختبار تكون لخدمة هذا الهدف. ولا ينبغي أن يتبارى المعلمون، ويزيدوا على بعضهم بعضاً، في التشديد وتصعيب الأسئلة، وصياغتها كألغاز وأحاجي، أو بطريقة تعجيزية، أو إلجاء الطلاب إلى الانهماك في حفظ النصوص والمعلومات، مع أن المطلوب في العملية التعليمية هو الفهم والاستيعاب بالدرجة الأولى.

وفي الاستعداد للاختبارات، يكون لتوجيهات المعلم وإرشاداته دور كبير في صنع الحالة النفسية للطلاب، فهو الذي يشجعهم على الاهتمام الإيجابي، وينمي فيهم روح الثقة، وأجواء الاطمئنان، وينزع عنهم هالة الرعب والقلق.

وخطأ ما يقوم به بعض المدرسين، من التهويل والتهديد لطلابهم قرب الاختبارات، وهم يقصدون بذلك دفعهم أكثر للاهتمام، لكن الأسلوب الخطأ غالباً ما يعطي نتيجة خطأ.

وفي قاعة الاختبار يجب أن تتجلى رعاية المعلم وحنوه على الطالب، فهو في لحظة حساسة، يحتاج فيها إلى العون والدعم، الذي يوفر له الاطمئنان والاستقرار، ويشيع في نفسه روح الثقة، فيصبح أكثر ارتياحاً وتركيزاً. والعون الذي نقصده من المعلم هو الخلق الطيب، والتعامل الهادئ، والتشجيع ورفع المعنويات.

إن بعض المعلمين يدخل على الطلاب في قاعة الاختبار كضابط عسكري، أو كمحقق يواجه متهمين، وذلك بحجة تطبيق القانون والتعليمات، فيتعامل بقسوة وشدة، ويسيء الظن في أقل حركة من الطالب، وينشر أجواء الرعب والخوف، وكل ذلك مضر بمصلحة الطلاب، ومخالف لأساليب التربية الصحيحة، والتعليم السليم.

ف تطبيق القانون والتعليمات أمر مطلوب ولكن بروح طيبة، وأخلاق سامية، وكلما توفرت للطالب في قاعة الاختبار أجواء الراحة والاطمئنان، كان أداؤه أفضل، وإنجازه أحسن. لذلك توصي الدراسات التربوية التعليمية بأن لا ترتبط طريقة الاختبارات وإجراءاتها ونظمها بأساليب تبعث على الرهبة والخوف.

ونشير هنا إلى حاجة الطالبات بشكل خاص إلى حسن الرعاية وقت الاختبار، فهن أكثر عرضة لقلق الاختبار من الذكور، كما استتجت دراسات عديدة، ومشاعرهن أرق وأرهف، لذلك تنشر الصحف كل عام، عن حالات من الإغماء والإعياء تقع في صفوف الطالبات، أثناء

الاختبارات، ويبدو أن إمكانية القسوة والشدة في التعامل مع الطالبات أكثر منها مع الطلاب، مما يغري بعض المعلمات بممارسة ذلك الأسلوب، وهو ظلم وانحراف عن أساليب التعليم والتربية السليمة.

الفصل الثالث

في العلاقة مع المجتمع

- النجاح في العلاقات الاجتماعية
- الوظيفة.. خدمة وأمانة
- المعلم.. أقدس مهنة وأخطر دور



النجاح في العلاقات الاجتماعية

يتعرّض الإنسان من خلال علاقاته وتعامله مع الناس إلى امتحان دائم، فهو من جهة يواجه أمزجة مختلفة ونفسيات متفاوتة، ومن جهة أخرى يحتاج إلى التعامل والتعاطي الدائم معهم، ولكي يكون الإنسان ناجحاً في هذا التعامل ينبغي أن يمتلك صدىً منشراً ونفسية سمحة.

فالتعامل مع البشر تختلف قوانينه عن التعامل مع الطبيعة، إذ قوانين الطبيعة ثابتة بينما البشر أمزجة مختلفة، وعقول متفاوتة، ومصالح شتى، وأكثر من ذلك أن مزاج الفرد الواحد لا يكون ثابتاً دائماً بل يتقلب بتقلب الظروف والأجواء التي تحيط به، مما يضفي على الصعوبة الموجودة أصلاً صعوبة أخرى، فقد تلتقي شخصاً يوماً ما فيكون فيه سعيداً فرحاً مسروراً، ثم تلتقيه يوماً آخر فتجده على عكس ذلك تماماً.

وليس صحيحاً أن يلقي الإنسان باللائمة في مشكلات التعامل

على الآخرين، فيُعدُّ نفسه بريئاً من كل نقص، أو يرى أن النقص والعيب في الآخرين فقط.. فيقول إن الناس لا يفهمونه ولا يقدرونه، وإنهم غير جديرين بالاحترام والتقدير، وإنهم لو كانوا كذا لكان تعامله معهم أفضل، ولو كانوا مثل فلان وفلان، لكنت ناجحاً معهم.

والواقع أن الناس لا يمكن أن يكونوا كما يتمنى أي شخص ويريد، فهل يتصور هذا أن الله يخلق الخلق حسب مزاجه ورغبته هو، وهل الناس لباس تفصله على ذوقك حتى تلبسه؟ أم أثاث تريد أن تستعمله فتعطي قياسه للنجار فيصنعه لك. إن الناس هم الناس.. في كل مكان تذهب إليه وسيبقون كذلك.

ولم يحقق الله لأحد من خلقه، حتى من أنبيائه ورسله، أن يخلق له أناساً من صفات معيَّنة حتى ينجح في تعامله معهم.

فكيف ينجح الإنسان في تعامله مع الناس رغم اختلاف نفسياتهم، هذا ما تجيب عنه الآية ٦٣ من سورة الفرقان حيث يقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

حيث تؤكد الآية أن ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الذين يخضعون لأوامره ونواهيهم، يتصفون بصفة هامة تساعد في إنجاح علاقتهم مع الآخرين وتأثيرهم عليهم، وهذه الصفة هي أنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فلا يمشون بخيلاء وتكبرٍ وتجبرٍ، وأنهم لا ينظرون إلى أنفسهم بتميز

عن الآخرين ولا يشعرون بأنهم أرقى من بقية الناس.

وهذه النفسية المتكبرة لا يمكن أن تنجح في التعامل مع الغير، لأن أهم أسس النجاح أن يكون الإنسان قادراً على التسامي على ردات الفعل، وامتكناً من ضبط النفس أمام كل إثارة وتهيج، وأنى للمتكبر أن يصل إلى هذا المستوى.

ثم تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ والجاهلون ليسوا بالضرورة طبقة الأमीين أو غير المتعلمين بل قد يكونون أناساً متعلمين وعلماء متخصصين، غير أنهم جهال في كيفية التعامل مع غيرهم، وهم ليسوا بالضرورة صغاراً في السن بل قد يكونون كباراً في السن إلا أن تصرفاتهم طفولية.

فالذين هم من عباد الرحمن المطيعين لا يستجيبون لإثارات الجاهلين بل يكون ردهم كما تؤكد الآية ﴿سَلَامًا﴾.

وسلاماً هنا تعني الوداع، أي إن هذا وقت الافتراق بيننا، أي اننا لن نستجيب لكم في الوقوف عند كل تصرف جاهل تقومون به، بل سنمر به مرور الكرام، كما تشير إلى ذلك آية أخرى حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾^(١).

وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٢.

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ^(١). فليس يليق بشأنهم أن يردُّوا على كل تصرف جاهل، بل هم أرفع وأعلى وهم منصرفون إلى مهماتهم وأعمالهم الطيبة الأساسية لا ينشغلون عنها بالترهات والخصومات الجانية.

وهذه هي الصفة التي تميزت بها الشخصيات الناجحة في التعامل مع الآخرين.

ويعطي لنا الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنموذجاً لتلك الشخصية فقد حدث (أن لئيماً اعتدى عليه فسبّه، فأشاح بوجهه عنه، فانتفخت أوداج اللئيم وراح يقول له: إياك أعني. وأسرع الإمام قائلاً: «وعنك أغضي..» وتركه الإمام وانصرف)^(٢).

(وخرج من المسجد ذات مرة فسبّه رجل فأسرع إليه الناس للإنقاذ منه فنهاهم عن ذلك، وأقبل عليه قائلاً: «ماستره الله عنك أكثر، ألك حاجة نُعينُك عليها؟» وخجل الرجل وودَّ أن الأرض قد ساخت به، ولما نظر إليه الامام أشفق عليه فألقى إليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم)^(٣).

هذا في حين أنك تجد بعض الناس يتفاعلون حتى مع الكلام الذي

(١) سورة القصص: الآية ٥٥.

(٢) القرشي: باقر شريف، الإمام زين العابدين، ج ١، الطبعة الأولى ١٩٨٨ م، (بيروت: دار الأضواء)، ص ٧٧.

(٣) المصدر السابق.

ينقل إليهم عن الآخرين رغم أن النقل قد لا يكون دقيقاً.

وينقل عن الشيخ الآخوند محمد كاظم الخراساني رحمته الله، أنه كان آية في تعامله حتى مع المناوئين له وكان يهتم خصوصاً بمبادلتهم الإساءة بالحسنى..

وذات مرة دخل عليه أحد الخطباء المعروفين ممن كانوا يعارضون الشيخ الآخوند في تزعمه لحركة المشروطة التي تطالب الملك القاجاري في إيران بوضع دستور للبلاد وإنشاء مجلس للشورى، وكان ذلك الخطيب ينتمي الى مجموعة أخرى كانت تسمى بالمستبدة، تطالب بأن يبقى الوضع كما هو خوفاً من دخول القوانين غير الإسلامية في الدستور أو نفوذ رجال من خارج الوسط الديني في مجلس الشورى، ولوجود حالة الخلاف هذه فكثيراً ما تناول ذلك الخطيب من على منبره الشيخ الآخوند بالنقد والتجريح على موقفه وشاء القضاء أن يحتاج هذا الخطيب أن يبيع بيته حتى يسدّد ديناً عليه فقال له المشتري: إذا وقع الآخوند على سند بيتك أشتريه وإلا فلا..

فجاء الى النجف. والتقى الشيخ الآخوند.. احترامه الشيخ كثيراً وأجلسه في صدر المجلس وعبر له عن سروره بلقائه، فقال الخطيب: أرجو أن توقع هذا السند لأستطيع أن أبيع بيتي، فأخذ الشيخ السند ثم بعد فترة قام الشيخ وأخرج من خزانة عدة أكياس من الليرات، ودفعها الى الخطيب وقال: أنت من أهل العلم وأنا لا أرضى أبداً

بضغط الحاجة على أهل العلم، خذ هذا المبلغ وأدّ ديونك ولا تبع بيتك فتشرد عائلتك. فخجل الخطيب من تصرف الشيخ ولكنه أصبح بعد ذلك من أنصار الشيخ ومحبيه^(١).

الأقربون أولى:

ومهما كانت الحاجة إلى ممارسة هذا الخلق مع الناس ماسة وشديدة إلا أن التعامل بها مع المحيط القريب من الإنسان أهم وأكبر. فالعفو والصفح له قيمة عظيمة إذا مارسته مع الأبعدين، ولكن قيمته تزداد حينما يمارس وسط العائلة والأسرة والدائرة الأقرب للإنسان، مع الوالدين الكبارين، ومع الزوجة والأبناء، مع الفقراء والضعفاء ومن لا حول لهم ولا قوة.

ذلك أن القوي قد يندفع الإنسان للتنازل معه بدافع من الخوف والهيبة وتجنباً للمشاكل، أما الضعيف الذي لا يملك حولاً ولا قوة، فإن التنازل له لا يحركه الخوف، بل رغبة للثواب والأجر من الله وانطلاقاً من طيب الذات والمعدن.

أما بعض الناس، ونحن نسمع أحياناً شيئاً من هذه القصص، إذا أخطأ في حقهم بعض إخوانهم فإنهم يكشرون عن أنيابهم فينتقمون منهم بشراسة. وإذا تجاوز عليهم أناس غرباء عنهم أو أقوياء في

(١) مختاري: الشيخ رضى، سيماء الصالحين، ترجمة الشيخ حسين الكوراني، ١٩٩٢م، (بيروت: دار البلاغة)، ص ٢٧٨.

مراكزهم، فإنهم يخنعون ويركعون ويدفنون رؤوسهم في الرمال.. ثم لا يفتأ يكرر عليك كلمات الصبر والتحمل (ما عليه، بسيطة، ما يخالف، نتحملها، شدة وتزول)، وبذلك يكونون مصداقاً لقول الشاعر:

أسد علي وفي الحروب نعمة ربداء تجفل من صغير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الضحى بل كان قلبك في جناحي طائر
وليت شعري، أين كانت هذه الكلمات حينما أخطأ في حقك
أخوك في النسب أو الايمان، ولماذا حسبت ثورتك هناك استرداداً
لعزتك وكرامتك التي تصورت أنها انتهكت وأهينت، أما هنا فتحولت
إلى صابر محتسب، فأين منك إذاً قول الله عز وجل: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١).

إن طريق الفرد، والمجتمع للنجاح في تحدي العلاقة مع الآخرين يمر حتماً بهذه المقدمة وما لم يكن الإنسان قادراً على التحكم في ردّات فعله على تصرفات الغير، فإنه لن يكون ناجحاً في تعامله، ولنا في سيرة النبي وأهل بيته خير أسوة وقدوة، ولنستفيد من سيرة العظماء الذين بلغوا أعلى المناصب لكنهم تغلبوا على حس الانتقام فهذا يوسف الصديق يخاطب إخوته حينما دخلوا عليه مصر وهو ملك عليها، بعد أن أساءوا في حقه كثيراً، حسدوه وألقوه في غيابة

الجب، ثم بيع كعبد في مصر، وتعرض للسخرة والانهام، لكنه كان أسمى وأكبر من الانتقام والحق، بل خاطبهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١).

إن سعة الصدر، صفة ضرورية للنجاح في الحياة الاجتماعية، ولتجاوز مشاكل التعاطي والتعامل مع الآخرين من القريين والبعيد، وهي تجعل نفس الإنسان في راحة من التفاعل مع إساءات الآخرين، كما توفر على أعصاب الإنسان ومشاعره حالة الاضطراب والتشنج الناتج من ردات الفعل على الاستفزات المعادية.

(١) سورة يوسف: الآية ٩٢.

الوظيفة.. خدمة وأمانة

لا بدّ لإدارة شؤون المجتمع من جهاز وظيفي، فأَي قائد مهما كانت قدراته وكفاءته لا يستطيع إدارة الأمور بجهدهِ وطاقته الشخصية المباشرة، وأَي إدارة لعمل واسع متشعب تحتاج إلى الاستعانة بموظفين.

والجهاز الوظيفي مهم وحساس لأنّه يشكل القناة بين الحاكم والناس، فعبره تصل أمور الناس وقضاياهم إلى الحاكم، وبواسطته تنفَّذ الأنظمة والقوانين، فإذا كان الجهاز الوظيفي صالحاً ويعمل بشكل سليم، انتظمت أمور الناس وفق النظام والقانون، أما إذا أصابه الفساد والخلل، فستضطرب أمور العباد والبلاد، وتتعثر الأنظمة والقوانين، ولن يغني صلاح الحاكم ولا يعوّض عن فساد الجهاز الإداري.

حسن الاختيار:

ومن أجل أن يؤدي الجهاز الإداري والتنفيذي دوره على أحسن وجه، لا بد من حسن الاختيار وخاصة لذوي المراتب المتقدمة، والمناصب العليا، وتركز النصوص الدينية على صفتين رئيسيتين يجب أن تتوفر في الموظف المسؤول: صفة الأمانة وصفة الكفاءة. والأمانة تعني أن يحافظ على الإمكانات التي تكون تحت يده فلا يُصرف شيء منها إلا في موارد المقررة، وأن لا يسيء استخدام موقعه وصلاحياته تبعاً لرغباته وميوله، وتنفيذاً لمآربه الشخصية وانتماءاته.

والكفاءة تعني الجدارة والأهلية للمسؤولية الملقاة على عاتقه، يقول تعالى عن لسان نبيه يوسف حينما رشّح نفسه لإدارة الاقتصاد في مصر: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

لقد وصف نفسه بصفتين عدّهما مبرراً لأهليته وصلاحيته للمنصب: أنه حفيظ أي أمين مؤتمن يحفظ ما يكون تحت يده من ثروات وإمكانات، وعليم أي صاحب معرفة وكفاءة تمكنه من تحمّل المسؤولية وأداء المهمة.

وفي مورد آخر ينقل القرآن الكريم عن ابنة نبي الله شعيب، حينما اقترحت على أبيها توظيف نبي الله موسى للقيام بأمور خدمتهم، فركّزت على صفتين رأتهما في شخصيته تؤهلانه للوظيفة، يقول

(١) سورة يوسف: الآية ٥٥.

تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^(١).

ويقول الإمام علي (عليه السلام) في عهده لمالك الأشر: «ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً - وفي نسخة اختياراً - ولا تولهم محابة وأثرة»^(٢).

إن إعطاء الوظائف للمحسوبيات والمحابة على حساب النزاهة والكفاءة لهو سبب من أهم أسباب الفساد والخلل في الأجهزة الوظيفية والإدارية في أية مؤسسة من المؤسسات.

الرقابة والإشراف:

حينما يستلم الإنسان وظيفة من الوظائف، ويجد نفسه صاحب أمر ونهي ضمن صلاحيات منصبه، ويرى تحت تصرفه إمكانيات وسلطات، فسيكون أمام امتحان حقيقي، ينجح فيه الصالحون والواعون الذين يخافون ربهم، ويخشون حسابه وعقابه، بينما يتساقط في هذا الامتحان أصحاب النفوس الضعيفة، الذين يحسبون المنصب والوظيفة فرصة ومجالاً لإشباع رغباتهم ونزواتهم، ولتحقيق مطامعهم، وتصفية حساباتهم مع الآخرين من خلال الموقع الذي تسلقوه.

(١) سورة القصص: الآية ٢٦.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣.

وقبل أيام نقلت الصحف خبراً يُعَدُّ عِيْنَةً لما تعاني منه بلدان كثيرة من الفساد الإداري وسوء استخدام الوظيفة، وهو أن أحد كبار مسؤولي الشرطة في بومباي (الهند)، عمد إلى إقفال مطعم صيني فخم اعتاد الأكل فيه مجاناً من دون أن يدفع. وكان سبب الإقفال أن مسؤول الأمن طلب حجز طاولة، إلا أن صاحب المطعم اعتذر لأن كل الطاولات محجوزة، فما كان منه إلا أن أرسل قوة أقفلته لتأخره لمدة ربع ساعة بعد الموعد المحدد للإقفال وهو الواحدة والنصف فجراً^(١).

وقد يكون هذا الإنسان الموظف صالحاً في بداية الأمر، لكن إغراءات المنصب، والفرص المتاحة أمامه قد تغريه، ويسوّل له الشيطان طريق الفساد، وإساءة استخدام الوظيفة، ويُلاحظ أن بعض الأشخاص تطرأ على شخصيته تغييرات في سلوكه وأخلاقه بعد أن يتبوأ موقعاً أو منصباً رفيعاً. كما يقول تعالى: ﴿كَأَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيِّفَى * أَنْ رَأَهُ اسْتَعْنَى﴾^(٢).

ويقول الإمام علي (عليه السلام): «الولايات مضامير الرجال»^(٣).

في مواجهة هذه الاحتمالات الواردة لا بد من رقابة وإشراف على سير أعمال الموظفين، وسلوكهم في ممارسة مهامهم، ووجود الرقابة

(١) الحياة: الصادرة بتاريخ ٢١ جمادى الثاني ١٤٢١ هـ الموافق ١٩ سبتمبر ٢٠٠٠ م، ص ٦.

(٢) سورة العلق: الآية ٦-٧.

(٣) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، قصار الحكم ٤٤١.

يشكل رادعا عن الانحراف، كما تُكتشف عبرها كثير من الأخطاء والمفاسد والثغرات.

ويروى عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «أنه كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشاً فأمرهم أمير بعث معه من ثقاته من يتجسس له خبره»^(١).

وفي عهده لمالك الأشتري وصي الإمام علي عليه السلام برقابة العمال والموظفين فيقول: «وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم العمال - فإن تعاهدك في السر لأموهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية، وتحفظ من الأعوان، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك، اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة»^(٢). وعرف عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رقابته الشديدة على الولاة ومحاسبته الصارمة على أخطائهم وتعدياتهم.

وفي كتاب (الخراج) أشار أبو يوسف القاضي إلى ضرورة هذا الأمر فقال: «وأنا أرى أن تبعث قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا في البلاد... وإذا صح عندك من العامل والوالي تعد بظلم وعسف وخيانة لك في

(١) السبحاني: الشيخ جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٨٤م (بيروت: دار الأضواء)، ص ٦٠٢.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣.

رعتك... فحرام عليك استعماله»^(١).

وقد تبلورت هذه الرقابة في تاريخ الدولة الإسلامية، وتحولت إلى مؤسسة تحمل عنوان ولاية المظالم أو ديوان المظالم، لتقوم بدور الإشراف والرقابة على موظفي الدولة وتقويم سلوكهم وممارساتهم الإدارية.

وفي العصر الحديث اعتمدت الدول الغربية هذا الأسلوب المؤسسي في الرقابة والإشراف منذ قيام الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر بعنوان مجلس الدولة، وأطلقت عليه بعض الدول «القضاء الإداري» أي بعد أكثر من ألف سنة على قيامه في الدولة الإسلامية. كما تؤدي الصحافة ووسائل الإعلام الحرة دوراً أساسياً في تلك الدول لملاحقة الأخطاء والمفاسد الإدارية.

الموظف وتحدي المسؤولية :

للرقابة الإدارية، والإشراف الدقيق، دور في تقليص مفاسد الجهاز الوظيفي، لكن فرص الانفلات من تلك الرقابة، أو الالتفاف عليها، ليس معدوماً أمام من تسوّل له نفسه خيانة الأمانة، والتلاعب بالمسؤولية، لذلك تشكو مختلف دول العالم اليوم من مشاكل الفساد الإداري، وأصبح يشكل ظاهرة عالمية.

(١) السبحاني: جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، ص ٦٠٤.

تقول دراسة لمؤسسة «أرنست أنديونغ» للمحاسبة في لندن، حول موضوع الاحتيال على الشركات الدولية الكبرى: إنه يرتكب أربعة أعمال احتيال من كل خمسة على الشركات أشخاص يعملون في هذه الشركات، وغالباً ما يكونون موضع ثقة، وخدموا فترة طويلة. وجاءت الدراسة على شركات تعمل في (١١) دولة، وشملت (١٧) قطاعاً، وأكدت أن الاحتيال يكشف صدفة، وليس عن طريق أنظمة الضبط والتحكم المعمول بها.

كما جاء في تقرير نشر في أمريكا بتاريخ ٢٤ / ١٢ / ١٩٩٥ م أنه تبلغ خسائر سرقة الوقت من قبل العاملين والموظفين في أمريكا (١٧٠) مليار دولار سنوياً، وبمعدل تسع ساعات أسبوعياً من كل عامل وموظف، ويتساوى الرجال والنساء في معدل السرقة من وقت العمل.

لذلك فإن من أفضل وسائل مواجهة هذه المشكلة إيقاظ الشعور بالمسؤولية في الموظف ذاته، بحيث يدرك أن الوظيفة أمانة شرعية ووطنية في عنقه، وأن أي خيانة أو تفريط فهو محاسب عليه أمام الله تعالى، ويشكل أضراراً بمصلحة وطنه ومجتمعه.

فمن الناحية الشرعية يُعدُّ الموظف ملتزماً بعقد يؤدي بموجبه عملاً معيناً يستحق عليه أجره محددة، وهو مؤتمن على مصالح وإمكانات يتحمّل مسؤولية الحفاظ عليها واستخدامها في مواردها

المقررة بحسب نظام العمل.

إن التقصير في القيام بمهام الوظيفة والعمل بسبب الكسل وحب الراحة، والانشغال بالأمر الشخصية في وقت العمل هو حرام شرعاً لما فيه من تفويت لمصالح الناس، حيث يعاني الكثير من المواطنين من مماطلة بعض الموظفين وتأخير إنجاز معاملاتهم، وإيذائهم بتكرار مراجعاتهم للدوائر، مع إمكان إنهاء المعاملة فوراً بوقت أقصر وأسرع.

وإلى جانب حرمة تفويت مصالح الناس وإيذائهم، فإن هناك إشكالاً شرعياً فيما يستلمه من راتب وأجر مقابل هذا الوقت المضاع، إن كل يوم من أيام العمل وكل ساعة من ساعاته، يتغيب فيها العامل أو يهدرها دون عذر مشروع، فإن المبلغ الذي يقابل ذلك الوقت من راتبه لا يحل له شرعاً.

وقد قُدم للإمام السيد أبو القاسم الخوئي رحمته الله الاستفتاء التالي:

هل يجوز للعامل أو الموظف في الدائر الحكومية أن يتغيب بصورة عذر كاذبة أو بدون ذلك في أيام بعض المناسبات الدينية؟

فأجاب: إذا كان خلاف النظام، ويأخذ مع ذلك راتب وظيفته فلا يجوز^(١).

(١) الخوئي: السيد أبو القاسم، صراط النجاة في أجوبة الاستفتاءات، ج ٢، ص ٣٠٠، مسألة رقم ٩٤٢.

كما سئل المرجع الديني السيد علي السيستاني عن حكم تأخر الموظف أو المدرس عن الدوام بفارق ١٥ دقيقة أو ٣٠ دقيقة فأجاب (حفظه الله):

لا يجوز له ذلك ولا يستحق الراتب المقرر له بمقدار ما تخلف عن أداء وظيفته^(١).

كما أجب عن سؤال حول مخالفة النظام الإداري بما يلي:
لا يجوز للموظف المذكور كغيره من الموظفين التخلف عن الأنظمة التي التزم بتطبيقها بموجب عقد توظيفه ما لم تشتمل على محرم^(٢).

وتشدد التعاليم الإسلامية على النزاهة والأمانة تجاه الإمكانات المرتبطة ببيت المال وثروة الشعب والوطن، فلا يجوز للموظف أن يستخدم شيئاً منها لمصالحه الشخصية خارج النظام والقانون.

وقد سئل المرجع الديني السيد محمد الشيرازي رحمته الله: عن استخدام الموظف الحكومي أو الأهلي للهاتف التابع لعمله لأغراضه الخاصة؟ فأجاب ناهياً: لا يفعل ذلك^(٣).

(١) السيستاني: السيد علي، أجوبة المسائل الدينية، مكتب سماحته بدمشق، ص ٦٤، مسألة ١١٠.

(٢) المصدر السابق: مسألة ١١١.

(٣) الحائري: الشيخ جعفر، أجوبة المسائل الشرعية، ص ١١٣، مسألة ٤٠١.

هكذا يربي الإسلام أبناءه على احترام المصالح العامة، والوفاء بالتعهدات، والأمانة في أعمالهم ووظائفهم.

فالوظيفة في منطق الإسلام ليست مورداً للكسب والربح فقط وإنما هي قبل ذلك أمانة ومسؤولية. كما يقول الإمام علي (عليه السلام) في كتابه لواليه على أذربيجان أشعث بن قيس: «وأن عملك ليس لك بطعمه ولكنه في عنقك أمانة»^(١).

الموظف وأخلاق التعامل:

يرى بعض الموظفين نفسه في موضع قوة وقدرة، وأن مصالح وقضايا للناس مرتبطة بقراره وتوقيعه وعمله، مما قد يخلق لديه شعوراً بالتعالي على الناس، واستغلال حاجتهم له ضمن واجبه الوظيفي، ويحصل في أحيان كثيرة أن يطبق الموظف القانون بتعسف وصلافة تجرح مشاعر الناس، وتسيء إلى كرامتهم وحقوقهم.

وينتج ذلك إما من وجود عقد نفسية عند الموظف، أو لعصية انتماء قبلي أو مذهبي، أو لتصفية حسابات أخرى بينه وبين بعض المراجعين، أو ما أشبه ذلك.

إنه في هذه الحالة يسيء إلى الجهة التي ائتمنته على الوظيفة، ويخون مصالحها، كما يحتمل نفسه الوزر والإثم من قبل الله تعالى.

(١) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب رقم ٥.

وقد ركز الإمام علي عليه السلام على جانب التعامل مع الناس من قبل موظفي الدولة ومسؤولي الأجهزة الحكومية في عهده لمالك الأشتر حينما ولاه مصر، حيث كتب له قائلاً: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»^(١). وفي كلامه إشارة مهمة إلى احترام الجانب الإنساني للمواطنين وإن اختلف الانتماء الديني.

إن الناس بطبيعتهم يستثقلون القوانين والأنظمة بشكل عام، وإن كانت ضرورية لتنظيم الأمور، فإذا ما أضاف الموظف بسوء أخلاقه عليهم ثقلًا آخر، فإن ذلك يحدث في نفوسهم السخط والنقمة، وينفّرهم من النظام والقانون.

الإتقان والإخلاص في العمل:

وكمواطنين يهمنّا أن نتقدم بلداننا، وأن تنتظم شؤون حياتنا وتتطور إلى الأفضل، فإن كل واحد منا يتحمّل جزءاً من المسؤولية في إنجاز هذا الهدف المهم. إن التخلف والمشاكل تحصل بسبب اجتماع وتراكم حالات الإهمال والتسيب والتقصير، فغياب موظف هنا، ومماثلة آخر هناك، وتقصير مسؤول في هذا الموقع، ومحاباة آخر في ذلك الموقع.. من مجموع هذه الممارسات والنواقص يحصل

(١) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣.

الخلل، وتتأثر مصالح الوطن والمواطنين.

إن أخطاءاً قد تحصل في مؤسسات صحية عامة أو خاصة، بسبب الإهمال والتقصير، فتذهب ضحيتها أرواح مواطنين أعزاء، أو إصابتهم بإعاقات وأمراض خطيرة.

وإن تخلفاً وتدنياً في مستويات بعض الطلاب مما يؤثر على مستقبلهم الدراسي قد ينتج عن تساهل وتقصير من بعض المدرسين، أو الإداريين في المؤسسات التعليمية.

وإن تعثراً في حركة التصنيع والإنتاج، أو سوءاً وتخلفاً في صفات منتجات متداولة تضر بالناس، قد يكون بسبب خلل وإهمال في تطبيق القوانين والأنظمة من قبل الموظفين المعنيين.

وهكذا فإن حياة المواطنين وصحتهم ومستقبل أبنائهم وحركة إنتاجهم ومختلف شؤونهم.. وسيادة القانون والنظام في البلاد، كل ذلك يرتبط بمدى إتقان الموظفين لأعمالهم الموكولة إليهم، وإخلاصهم في أدائها.

إن أوطاننا وثوراتنا ومستقبلنا أمانة في أيدينا جميعاً فلتتق الله في أنفسنا ومجتمعنا وبلادنا، وإن التدين الصحيح يجب أن يظهر أثره في أداء الأمانة والقيام بالواجبات والمهام في خدمة المصلحة العامة.

المعلم.. أقدس مهنة وأخطر دور

إذا كانت المهن والوظائف تتفاوت في قيمتها تبعاً لتفاوت مدى تأثيرها في المجتمع الإنساني، فإنه يمكن اعتبار التعليم من أهم المهن والوظائف خطورة وقداسة، وقد سبق أن أعلنت منظمة اليونسكو عند إقرارها لليوم العالمي للمعلم - الخامس من أكتوبر كل عام - أن المعلم صاحب أهم مهنة في العالم.

وقبل ذلك قال أحمد شوقي في قصيدته الخالدة:

أعلمت أشرف أو أجلّ من الذي بيني وينشئ أنفساً وعقولا
صحيح أن قضية التعليم ترتبط بأطراف عديدة، ولها أبعاد وجوانب مختلفة، بدءاً من السياسات والخطط، والمناهج والمقررات، إلى استعداد الطالب وجديته، ودور العائلة واهتمامها، ومروراً بمستوى الإدارة والخدمات والأجواء المدرسية، وتأثيرات المحيط الاجتماعي. إلا أن المعلم يحتل موقع المحور الأساس والعنصر

الرئيس في العملية التعليمية.

فالمعلم الجاد المخلص يمكنه المساعدة في سدّ الثغرات، ومعالجة النواقص، وتجسير الهوة بين المستلزمات المطلوبة والإمكانات المتاحة، بينما تعجز أفضل الوسائل وأرقى الإمكانيات عن تحقيق النجاح والتقدم على يد معلم فاشل.

بين المهنة والرسالة:

قد ينظر البعض إلى التدريس بأنه مهنة ومصدرٌ للرزق، حيث يتمتع المدرس براتب مناسب، ويحظى بإجازة سنوية مريحة.. لكن ما يجب التأكيد عليه هو خطورة المسؤولية التي يتحملها المدرس.

فهو المؤتمن على مستقبل أبناء المجتمع، وهو الجهة التي يوكل إليها تشكيل عقل الجيل الصاعد، وصياغة نفسيته، وتفجير قدراته وكفاءاته.

إن المهمة الملقة على عاتق المعلم هي تأهيل هؤلاء الطلاب ليكونوا أعضاء فاعلين وصالحين في مجتمعهم، ومساعدتهم للنجاح في حياتهم. وإن تقصير المعلم في أداء هذه المسؤولية، يهدد بظهور جيل ناقص الأهلية، ضعيف القدرات، قاصر عن مواكبة تطورات الحياة.

وأفراد هذا الجيل الذين سيمثلون غداً على مقاعد الدراسة أمام

المعلمين، هم مجتمع الغد، وسيصبحون بعد فترة من الزمن جزءاً من المحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه المعلم، ويتفاعل معه.

فأحد هؤلاء الطلاب سيكون مسؤولاً في إدارة يرتبط بها شأن من شؤونك أيها المعلم، وأحدهم قد يصبح صهراً لك بزواجه من ابنتك أو أختك أو إحدى قريباتك، وأحدهم سيكون مدرساً ومعلماً لابنك، وأحدهم قد يصبح زميلاً لولدك ورقيقاً له. ففي أي مستوى تريد أن يكون مسؤولو الأجهزة والإدارات الحكومية في بلدك؟ وما هو السلوك والسيرة التي ترجوها من صهرك وزوج ابنتك؟ وماذا تتوقع من المعلم الذي يدرس ابنك؟ وما نمط الشخصية التي تحبذ صداقتها لولدك؟

ضع هذه الصورة أمامك وتعامل مع طلابك على هذا الأساس، واعلم أن منهجية تعاطيك معهم الآن ستؤثر إلى حد كبير في تشكيل شخصياتهم، وصنع مستوياتهم المستقبلية.

الإخلاص وإتقان العمل:

إن أول وأبرز ما يطلب من المعلم ويتوقع منه: أداء مهمته التعليمية بشكل متقن صحيح، فهناك منهج مقرر، ومادة دراسية، يجب شرحها وتبيينها للطلاب حتى يفهموها ويستوعبوها، ولأن مواد التعليم حلقات متسلسلة متواصلة، فإن ضعف استيعاب الطالب في أي نقطة منها، ينعكس على فهمه لل فقرات المترتبة عليها.

ومع ملاحظة تفاوت مستوى الذكاء والاستيعاب عند الطلاب، وكون بعض المواد الدراسية فيها شيء من الدقة والصعوبة بطبيعتها، ومع ما يثار من إشكاليات ونقود على العديد من المناهج والمقررات، فإن كل ذلك يضاعف مسؤولية المعلم لكي يبذل أقصى ما لديه من جهد و طاقة، في توضيح المادة للطلاب، وتقريبها لأذهانهم وأفهامهم. وذلك يستلزم من المدرس ما يلي:

١. الإعداد والتحضير الجيد للدرس، فلا يصح للمدرس أن يعتمد على معرفته المسبقة بالمادة، وأن يقدم درسه بشكل روتيني، وكدور مهني يؤديه، غير مهتم بعد ذلك بمدى فهم الطلاب واستيعابهم للدرس.

بل على المدرس أن يعتصر ذهنه، ويصرف جزءاً من وقته قبل الدرس للتفكير في أفضل طريقة لطرح المادة المقررة.

٢. الاجتهاد في الشرح والتبيين ومراعاة متوسطي المستوى، والتأكد من وضوح الفكرة لجميع الطلاب، بالاستعانة بمختلف وسائل الإيضاح من كتابة ورسوم وصور وحركات وما أشبه.

٣. استثارة فكر وعقل الطالب، بتحريضه على المناقشة، ودفعه للتساؤل، وإدارة الحوار بين الطلاب أنفسهم حول الموضوع، وتدريبهم على النقد والتفكير العلمي، لأن الاعتماد على

الحفظ والتلقين طريقة كسولة غير صحيحة، تخلق حالة من التبلد الذهني، وتند قدرات الإبداع والابتكار.

٤. تشويق الطلاب وترغيبهم في المادة الدراسية، بأن يكون الطرح حيواً، فيه تجديد وطلاوة، وأن يتحدث لهم عن الموضوع بأسلوب يثير رغبتهم وشوقهم لمعرفة ومتابعة تفاصيله.

إن كثيراً من العلماء والنابعين في مختلف حقول المعرفة، يتحدثون عن دور معلمهم في انشادهم وانجذابهم نحو المادة التي نبغوا وتفوقوا فيها. وسمعت من بعض الطلاب كراهم لبعض المواد الدراسية، بسبب طريقة مدرسيهم في عرضها وطرحها.

٥. الاهتمام بحالات الضعف والنقص عند أي طالب، والتعرف إلى أسبابها وجذورها، وتلمس طرق المعالجة والإصلاح، لمساعدة الطالب على تجاوز تلك الحالة.

الدور التربوي:

إلى جانب الأسرة، فإن المدرسة هي المؤسسة التي تحتضن أبناء المجتمع منذ السنوات الأولى لتفتق وعيهم وإدراكهم، وتحتويهم في فترة مراهقتهم.

ويقضي الطالب في المدرسة نصف نهاره كل يوم، وهو في حالة تلقي واستقبال نفسي وذهني، وينظر إلى المعلم باعتباره جهة مؤثرة

عليه يرتبط به تدريسه وعلاماته ونجاحه.

وذلك يعني إمكانية القيام بدور تربوي أساس من قبل المعلم تجاه طلابه، فإلى جانب مهمته التعليمية يقع على عاتقه دور تربوي إرشادي، من هنا تطلق أكثر الدول عنوان وزارة التربية والتعليم على المؤسسة التعليمية، فالتربية أولاً والتعليم ثانياً.

وهذا ما سلكه القرآن الكريم عند الحديث عن وظائف النبي محمد ﷺ يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١) فالتركية قبل التعليم وأهم من التعليم.

وفي هذا العصر نعرف جميعاً مدى الحاجة الملحة لتربية الأبناء وتهذيب نفوسهم وتشذيب سلوكهم، حيث تتعرض القيم الدينية والاجتماعية للاهتزاز، ويعاني المجتمع من خطر انفلات أبنائه الناشئين، بسبب حالة الانفتاح الإعلامي والثقافي، الذي يربث ويروج لأنماط من الحياة والسلوك تخالف النظام القيمي في مجتمعاتنا، ويحرّض على التسبب والميوعة والانحلال، وحيث تعصف بجيل الشباب شتى الأزمات والمشاكل الواقعية والمفتعلة.

فأين هو دور المعلم في خضم هذه الظروف والأجواء الحساسة الخطيرة؟

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

إن الشعور بالمسؤولية الدينية والاجتماعية يجب أن يدفع المعلم لاستنفار كل طاقاته وقدراته، واستثمار موقعيته للإسهام في تربية هذا الجيل، الذي تحدى به الأخطار من كل جهة وجانب.

وإذا كان الإسلام يوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الجاهل، وهداية الآخرين، فإن المعلم هو في أفضل موقعية تتيح له ممارسة هذا الدور، وأداء هذا الواجب العظيم.

١. فهو بشخصيته وسلوكه يجب أن يكون أنموذجاً وقدوة طيبة لتلاميذته. فإذا ما ظهر عليه الالتزام بالدين، وحسن الخلق والسلوك، وطيب التعامل والاحترام، فإن ذلك يغرس في نفوسهم هذه الموصفات، ويدفعهم إلى تقمصها بداعي المحاكاة والاقتراب.

ومما يثير القلق حقاً كون بعض المعلمين يعانون من نواقص في شخصياتهم وسلوكياتهم، ومؤهلهم للتعليم لا يعدو شهادة التخرج، دون خبرة أو نضج، وهذه الشريحة من المدرسين تشكل مصدر خطر على شخصيات وسلوك الطلاب. لكنها شريحة محدودة ويمكن تلافي تأثيراتها السيئة بوعي الإدارة وسائر المدرسين.

٢. أن يغتنم الفرص لتوجيه الطلاب وإرشادهم عبر مادة الدرس، أو بالتعليق على حدث ما أو مناسبة ما، وباستخدام أفضل

الأساليب المؤثرة كالقصص والأمثلة والنكت الهادفة.

ولدينا مقررات المواد الدينية والأدبية يمكن أن تستثمر في التربية والإرشاد، شرط اجتهد المدرس في طرحها بشكل حيوي جذاب، يلامس هموم الطلاب وتطلعاتهم ويقترب من أجواء حياتهم وقضاياهم.

وكل المواد الأخرى أيضاً تعطي للأستاذ أكثر من فرصة ومجال لتأكيد القيم الصالحة، والنزعات الخيرة في نفوس طلابه.

٣. تشجيع الطلاب ودفعهم نحو الأجواء النافعة والبرامج المفيدة، فتشويقهم للمطالعة والقراءة، والذهاب إلى المساجد ومجالس العلماء والأدباء، والانخراط في سلك الجمعيات الخيرية والأندية واللجان الاجتماعية، ولا سيما للطلاب في المراحل الدراسية المتقدمة، كل ذلك يساعد في تحقيق الأهداف التربوية المرجوة.

الرعاية النفسية :

ما أحوج الطالب في سنوات دراسته الأولى، وفي فترة مراهقته، إلى رعاية الأستاذ، إنه في هاتين المرحلتين يعيش رهافة في مشاعره، وتحفزاً في أحاسيسه وعوطفه، فإذا ما لقي رعاية وعناية من الأجواء المحيطة به، والجهات التي ترتبط بها شؤونه وقضاياها، وفي طليعتها

بعد الوالدين المعلم، فإنه سينعم بالاطمئنان والاستقرار النفسي، مما يمكنه من تجاوز هذه الفترة الحساسة بنجاح، وأن يشق طريقه إلى النضج وتكامل الشخصية بسلامة وأمان، وتنطبع نفسه بالثقة والمحبة والانسجام مع الآخرين.

أما إذا واجه الجفاء والجفاف والقسوة والتحدي، فسيكون رد فعله النفسي والسلوكي في أحد اتجاهين خطيرين: إما الانكسار وفقدان الثقة بالذات ونمو عقدة الحقد، وإما الاندفاع نحو التمرد والانفلات.

إن بروز الأخطاء والهفوات من الطالب أمر طبيعي ومتوقع، في وظائفه الدراسية أو تصرفاته السلوكية، وهو يحتاج إلى الاحتواء والاستيعاب من قبل المدرس، بالتغاضي عن خطئه تارة، وبالموعظة الحسنة والتوجيه الرقيق تارة أخرى.

أما الانفعال الحاد، والغضب العارم، ومواجهة الطالب بروح التشفي والانتقام، فتلك طريقة محرمة خطأ، تكشف عن نوازع سيئة ونفسية مريضة معقدة.

وقد ينزعج الأستاذ من تقصير الطالب أو سوء تصرفاته، لكنه لا يصح أن يستخدم قوته وموقعيته في خوض صراع ومعة مع تلميذه الضعيف في مقابله، كما يحصل من بعض الأساتذة حينما يبالغون في رد فعلهم تجاه المسيء من طلابهم، ويؤلبون ويحرّضون المدرسين

الآخرين عليه، فإن تبادل الانطباعات والمواقف السلبية تجاه الطلاب منهج سيئ خطأ.

والأفضل لكل مدرس أن يخوض تجربته الخاصة في التعاطي مع التلامذة، دون التأثير بمواقف الآخرين.

ونبّه بشكل خاص على التعامل مع الطالبات من قبل مدرساتهن، فهذه الصبايا ذات المشاعر الحساسة المرهفة، تقع في بعض الأحيان في قبضة مدرسات عنيفات قاسيات، تنهال عليهن تجريحاً وإذلاً لآلئته المبررات والأسباب.

إن ضمير الإنسان ووجدانه، وخوفه من الله تعالى يجب أن يردعه عن إسائة التعامل مع من أؤتمن عليهم، وأصبح مسؤولاً عنهم، وهو في موقع القوة والقدرة تجاههم.

صحيح أن هذا الطالب الضعيف أو تلك الطالبة المسكينة، لا يمتلكان قدرة على الردع أو المواجهة، لكن الله تعالى ينتصر لهما، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على من ظلم من لا يجد ناصرًا غير الله»^(١).

ويقول الإمام علي عليه السلام: «ظلم الضعيف أفحش الظلم»^(٢).

فالمأمول من المعلمين الأعزاء أن يضبطوا انفعالاتهم أمام

(١) الهندي: علي المقتي، كنز العمال، ج ٣، ص ٥٠٠، حديث رقم ٧٦٠٥.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب ٣١.

تصرفات الطلاب، ويتحلوا بالرفق والرحمة والعطف، ولا يستخدمون الحزم والصرامة إلا في المواقع الضرورية والمطلوبة. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَيَّنُوا لِمَنْ تَعْلَمُونَ»^(١).

وعن حفيده الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «تواضعوا لِمَنْ تَعْلَمُونَهُ الْعِلْمَ»^(٢).

إن رحابة الصدر وإبداء مشاعر الرعاية والرفق، قد يكون أفضل طريق لإصلاح أخطاء الطالب، ودفعه لتحسين أدائه الدراسي، وسلوكه الأخلاقي، مع أخذ الظروف النفسية والأجواء العائلية والاجتماعية التي يعيشها الطالب بعين الاعتبار.

وأخيراً: ليكن واضحاً أمام المعلم ضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقه، وليعلم أنه بإخلاصه وأدائه لواجبه ينال عند الله سبحانه جزيل الأجر وعظيم الثواب، إنه في عمله الدراسي لا يمارس مهنة يكافئ عليها براتب شهري فقط، بل يقوم بعمل عبادي يقربه إلى الله تعالى ويؤهله لنيل مرضاته، ويقدم أجل وأعظم خدمة لمجتمعه ووطنه.

لذلك ليس غريباً أن يروي عن رسول الله ﷺ قوله:

«إِنَّ مَعْلَمَ الْخَيْرِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ دَوَابَّ الْأَرْضِ، وَحَيْتَانِ الْبَحْرِ، وَكُلَّ ذِي رُوحٍ فِي الْهَوَاءِ، وَجَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ»^(٣).

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢، ص ٦٢.

(٢) الكليني: محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ج ١، ص ٣٦.

(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٧.



المحتويات

٧	مقدمة
١١	الفصل الأول: في بناء الشخصية
١٣	التعبير عن الذات وتوكيد الشخصية
٢٩	المبادرة واستباق الخيرات
٤٣	نحو استثمار أفضل لوقت الفراغ
٦٩	بناتنا في طريق العلم
٨٣	الاستهلاك و عادات الإسراف
٩٧	الفصل الثاني: مواجهة التحديات
٩٩	المشاكل بين الآهات والمعالجات
١١٣	مصاعب الحياة بين الانفعال والاستيعاب
١٢٧	العوائق بين الإحباط والفاعلية

١٤١	قلق الاختبارات
١٥٣	الفصل الثالث: في العلاقة مع المجتمع
١٥٥	النجاح في العلاقات الاجتماعية
١٦٣	الوظيفة.. خدمة وأمانة
١٧٥	المعلم.. أقدس مهنة وأخطر دور
١٨٧	المحتويات



عنوان المؤلف

المملكة العربية السعودية

ص.ب: ١٣٢٢ القطيف ٣١٩١١

هاتف: +٩٦٦ ١٣ ٨٥٥٥٢١٠

فاكس: +٩٦٦ ١٣ ٨٥١٢٦٠٠

الموقع على الإنترنت: www.saffar.org

البريد الإلكتروني: office@saffar.org